

بحث في تاريخ الخير والشر وتمييز الانسان
بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم

تأليف

عباس محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة خير

يوم عرف الإنسان الشيطان كانت فاتحة خير .

وهى كلمة رائقة معلبة ، تروع المسامع وتستحق فى بعض الأذواق أن تقال ولو تسامح القائلون والسامعون فى بعض الحقيقة طالبا لبلاغة المجاز .

ولكنها فى الواقع هى الحقيقة فى بساطتها الصادقة التى لا مجاز فى لفظها ولا فى معناها ، ولا تسامح فى مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هى من قبيل الحقائق الرياضية التى تثبت بكل برهان وتقوم الشواهد عليها فى كل مكان .

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته .

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما ميز الإنسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع إدراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء .

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن بين أعمالها الحسان وأعمالها القباح من فارق إلا أن هذا يسر وهذا يسوء ، وإلا أن هذا يؤمن وهذا يخاف . أما أن هذا جائز وهذا غير جائز فى ميزان الأخلاق فلم يكن له مدلول فى الكلام ، ولم يكن له — من باب أولى — مدلول فى اللحن والوجدان .

وكانت القدرة هي كل شيء .

فلما عرف الإنسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التي تجمل بالرب المعبود والقدرة التي لا تنسب إليه ولكنها تنسب إلى ضده ونقيضه .

وهو الشيطان .

وكانت فاتحة خير لا شك فيه .

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح في التعبير .

وكانت للإنسان عين يعرف بها الظلام ، لأنها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التي كانت مطبقة عليه .

فتاريخ الإنسان في أخلاقه الحية لا ينفصل من تاريخ الشيطان .

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر .

ولكنه الأول في طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه .

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخرى ألزم من تلك الخطوة الأولى في تاريخ الأخلاق الحية .

وتلك هي معرفة الخير في الصميم .

فقد كان على الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة .

فليس الخير خلوا من الشر وكفى .

وليس الخير ابتعادا عن الشر وكفى .

وليس الخير عجزا عن الشر وكفى .

وليس الخير مخالفة للشر وكفى .

كلا . بل الخير شيء قائم بذاته وليس قصاراه أنه امتناع من شيء سواه .

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين .

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان أنه سقط لأنه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة أجمعين .

وإنما فضل آدم عليهم لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور .

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لأنهم بمنجاة من غوايته وفضل على الجان الذين لا يختارون بين نقيضين .

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان في هذا العالم وعرفت معها فضيلة الإنسان .

فإنما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام .

وإنما فضل آدم عليهم لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب فتنة ، ولولا ذلك لما كان فضل على الملائكة ولا على الجان .

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للأخلاق الحية في وجدان آدم وبنيه .

وتمتحن الأخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لأن يعرف بعد جهل ويدرك بعد قصور فليس — غير الإنسان — مصداق لذلك المخلوق .

ليست الملائكة ولا الجان في صورتها الحية مخلوقات نامية في معرفتها ، بمالة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة إلى الرشد إلى غاية المدى المقدور لكل مخلوق .

ولكنها في صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التي وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلمعان النور ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافي وجريان الماء وخفقان الهواء .

ولا كذلك سليل التراب . أنه ليعلم حتى لتعجب كيف علم ، وانه ليجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لأن يأتى بالعجب فى علمه وجهله فهو مسئول عن هذا وذاك .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » .

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » .

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

« قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

فليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار .

وإنما القداسة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان .

وكلما ذكرت الأخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان فى ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية فى المطاوعة والاعتصام ، وتلك هى الأخلاق الحية كما تعيش فى اللحم والدم وفى القيم والمزايا . فأما الأخلاق فى صفحات الورق وفى مصطلحات الباحثين فهى كلمات وحروف وأصداء .

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطورا على صفحات ، ويجمعها أطروحة فى قاعة درس أو سفرا على الرف إلى جانب أسفار .

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ويعطيها

الأسماء التى تدله على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الأسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة فى القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق وسرا يختلج فى الأعماق .

وهكذا ينطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الأمم وهى تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الأكوان التى لا تحصرها الأوراق ولا تحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجىء العقول طارئا عليها وضيفا فى رحابها ، وقد مضى عليها فى مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .

الشيطان !

أى مجموعة من الأسفار تؤدى للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان إلى الأعماق .

وإلى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون بها ألف « لوجى ولوجى » على أغرار السيكولوجى والبيولوجى والميثولوجى وغيرها من اللواحق فى الأواخر على اختلاف الصيغ واللغات .

إلى اليوم يفرقون بين الصفات والأخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى الحس ولا فى الذهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة إلى آخر الزمان .

وقد سمعنا عن الصفات الإلهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الإنسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئا من فوارق الأخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب .

ولمن يشاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى أو الفلسفى من قبيل الأخلاق المثالية والأخلاق الاجتماعية

والأخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لا يحس منها إلا أنها بطاقات معلقة على وجهات أو شواخص لا نبض فيها ولا دم ولا حراك .

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الإلهية فيفهم أنها أعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه إليها والرخاء فيها إلى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغالق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ولا يكون قصاراه من معرفتها أنها مادة فى معجم أو عنوان على مذهب أو إشارة مرور إلى حيث يسير أو لا يسير .

ولأول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها فى الوقت نفسه بالحنين إليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليها لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها .

ولأول وهلة يسمع الصفات الإنسانية فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الإلهية والملكية ، ويعرف فى الوقت نفسه أن الإنسان قابل للطموح إلى ما يعلو عليه والهبوط إلى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء .

ولأول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم أنه فى موقف احتراس وحذر وإن لم يخل من تطلع فى أحيان ومن إعجاب فى أحيان أخرى ، ولا يضطر إلى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع فى موقعها عنده كأنها نقلت إليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا مدروسا ولم تنقله منه باشارة أو عنوان .

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيمية أو الصفات السبعية ، فإنها كذلك تنقل إليه أشياء وأحياء ولا تنقل إليه حروفا وكلمات .

إن خالق الكون لم يرد باعطاء الناس حياتهم أن يعطيهم قاموسا أو

موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففى وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هى أكثر الأشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، وإذا هى برج بابل يمتد على كرة الأرض ولا يزال أبدا فى حاجة إلى ترجمان .

ولو كانت هذه المدلولات فى اللغات هى الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة فى كل لسان .

ولكن هذا النوع الإنسانى تلقّى وجوده من خالقه حياة تجيش فى ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية ، كائنا ما كانت أصداؤها فى عالم الحروف والرموز والإشارات والكلمات والطلاسم أو فى « الهيروغليفية الكونية » على الإجمال .

ومن شاء فليبادل إن كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالإنسان إلى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة الشيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع فى مكانها ما يقترحه فى تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع الإنسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد .. فانه قاتله وملقيه فى مقبرة من قاموسه الجليل .

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته وبين هذه « الهيروغليفية » الكونية التى هى الكلام وهى متكلموه وهى المحسون به وفاهموه .

وليقف خاشعا مستعيذا « بالشيطان » من الغرور .

وليرجع فى أمان هذه « المعوذة » إلى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الأخلاق الحية وتاريخ الإنسانية الخالدة .

فاذا كان لا يدرك تاريخ الأخلاق الإنسانية حقا وصدقا إلا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى .

إنه وجود أرسخ من وجود الإنسان .

ومن لم يكن فى وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخفاء ، والظواهر والأسرار ، فكل أولئك له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه .

وسنكتب فيما يلى تاريخ الشيطان لنستخرج منه تاريخ الأخلاق الإنسانية كما تشخصت فى ثنية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك ما يوافقها أو يلافقها من مصطلحات القاموس !

قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الإنسان تملأ العالم بأشتات لا تحصى من الأرواح والأطياف .

وكان من هذه الأرواح والأطياف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم ، ومنها ما يتلبس أحيانا بالأجسام ويظهر لكل من لقيه فى مأواه .

ولم يكن الإنسان يقسم هذه الأرواح الى ذات خير وذات شر ، لأنه لم يميز بين الخير والشر إلا بعد معرفته بصورة الشيطان كما تقدم .

وإنما كانت هذه الأرواح تنقسم عنده إلى أرواح مصادقة أو أرواح معادية ، وإلى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، وإلى أرواح سهلة أو أرواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والأذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة فى طريق الإيمان بالأرواح .

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد .

فالشر لا يصدر منه خير بارادته ، ولكن الضرر قد يصيب أناسا ولا يصيب آخرين ، وقد يأتى من عمل ولا يأتى من عمل غيره ، وقد يكون الضار بهذا نافعا لذاك ، فليست هناك طبيعة تسوقه إلى الشر فى جميع الأحوال ، بل هناك أحوال متعددة وأعمال منوعة ، وشأن الأرواح فى ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، أو بين قوم من خاصته فى القبيلة وقوم ينفر منها وينفرون منه لأسباب عارضة أو باقية لا ترجع إلى أصالة فى الطباع .

وقد يصح تشبيه عالم الأرواح عنده، بعالم الغاب أو عالم السباع والحيوان .

فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلبل والعصفور ، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويستخدمه فى مصالحه ويشركه فى مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الأنيس وفى الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفى الخلاء الحصان الجامح الذى لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة أحوال وأحيان أو أحوال ورياضة واستعصاء .

وهكذا كان عالم الأرواح فى الهمجية الاولى : كان عالم فائدة وضرر ، أو عالم هوادة واستعصاء ، أو عالم صداقة وعداوة ، فأما عالم الخير الأصيل فلا تتمثل له صورة فى بديهة الإنسان قبل انقسام الطبائع وتباين الأقيسة والموازين بين الأعمال والأخلاق .

ويدل على أصالة الإيمان بالأرواح فى بديهة الإنسان أنها وجدت فى كل سلالة بشرية من السلالات التى نشأت فى القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض فى مسائل الدنيا والدين ، أو من السلالات التى وجدت فى الأمريكيتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهى لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها إلى مصدر معروف فى العالم القديم .

ووجدت هذه العقيدة على أكثرها فى الجزر الاسترالية المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الأمازون فى أمريكا الجنوبية ، أو وجدت فى أفريقية الجنوبية أو الشرقية التى يقال أنها مهد الجنس البشرى قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك أنها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس القفازى قبل فجر التاريخ .

والمهم فى هذا الشيوع أنه أصيل فى البداهة الإنسانية وأنه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم أن يفسروا كل شىء بالدجل والخداع .

ويكاد الشبه بين الأرواح فى القارات المتباعدة أن يكون أقرب من

الشبه بين الآدميين أنفسهم فى تلك القارات ، فالكائن الروحى فى الجزر الاسترالية أشبه بالكائن الروحى فى أمريكا الجنوبية من الأمريكيين الأصلاء والاستراليين الأصلاء ، وليس بين روح وروح فى الأقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذى يعترى الألوان والأشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فإنك قد تنقل الاسترالى من الجزر إلى أمريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما يريبه من الغرباء ، ولكنك إذا نقلت روحا من هناك إلى هنا أو من هنا إلى هناك لم تجده على غرابة فى عالم الأرواح ولم تكن بينه وبين العالم الذى انتقل إليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التى بينه وبين سائر الأرواح فى وطنه الأصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها فى علم المقارنة بين الأديان ، لأنها قد تفضى بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الأجناس والأقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لأن مخلوقات الخيال وحده بعيدة الفوارق بين أساطير الأمم فى الإقليم الواحد فضلا عن شتى الأقاليم .

وقد كتب الرحالون والبحاثون عن القبائل الفطرية التى وجدوها فى القارات الخمس خلال رحلاتهم إليها منذ أوائل القرن الثامن عشر الذى نشأت فيه علوم المقابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا أنها تغيرت مع الزمن منذ النشأة الأولى قبل عشرات الألوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها فى العصر الحاضر كان هذا التشابه حقا أجدر شيء من الباحثين بالالتفات إليه ، لأنه دليل على أن وحدة السليقة الدينية أقرب جدا من وحدة القريحة والخيال ، إذ ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الأرواح والأطياف فى الأديان والمعتقدات .

إن الدين أعمق فى كيان الإنسان من الخيال الذى يولد الأساطير ويخلق أشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الأصلاء من الأفريقيين والأمريكيين والأوربيين والاستراليين ملحوظا فى تقارب الأوصاف بين الأرواح والأطياف حيث لا يلحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الأدوات وآنية الفخار ، وهى المصنوعات التى تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد فى كل عصر من العصور الحجرية أو

عصور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحى بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الأرواح والأطياف .

وقد تخصص لكل إقليم من أقاليم القارات رحالون مستقلون فى دراساتهم للأحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجزر الاسترالية آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم إلى بعض فى تسجيل المشاهدات وإثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون المشابهة بين العقائد حين يرجعون إلى المقارنة والمقابلة ويستخلصون منها ما يستخلصون من وحدة الأصول ..

* * *

ولهذه المشابهات يقرأ القارىء عن « أرواح . إقليم من الأقاليم فلا يضيره كثيرا أن يخطىء فيحسبها أرواح إقليم آخر ، لأنها بمثابة النبات الذى يصح زرعه على طول السنة فى جميع الأرضين ، فيزرع فى هذا الموسم أو ذاك ، وفى هذه البقعة أو تلك ، بغير اختلاف كبير فى طريقة الفلاحة والحصاد .

يقول باريندر Parrinder فى كتابه عن النحل التقليدية فى أفريقية « إن الأرواح يمكن أن تتخذ مساكنها فى كل شىء من أشياء الطبيعة على كل قمة وفى ظل كل شجرة خضراء ، وأن التلال والصخور البارزة أحرى أن تكون مأوى للأرواح القوية » .

إلى أن يقول : « وفى الآجام المتشابكة العميقة تسكن الأرواح والأطياف ذوات الخطر والأذى ... وحيوانات الغاب — أو سكان الأرض — كثير منها حرام على هذه القبيلة أو تلك ... فاذا قتل أحدها وجبت الترضية له أو يظل فى مطاردة القاتل طيفا لا يفر منه » .

ويقول شارل واجلى Wagley فى كتابه عن « بلدة الأمازون » من أمريكا الجنوبية : « إن بعض القردة تخاف فى أعماق الغاب وتحسب قردة

الجريبة Guariba آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الإنسان ... وأشهر أطياف الغاب وأرواحها الكاروبيرا التى تشبه إنسانا قزما ويقال إن أقدامها ملتفة وراءها ، وهى تعيش فى أعماق الغاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة ، ويقال إنها مغرمة بشراب الروم والتدخين ... » .

ثم يقول : وطيف آخر من الأطياف الخطرة يدعى ماتن تابريرا ، يظهر فى المدن ولا يظهر كالأطياف الأخرى فى الغابات والأنهار .. وأصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الأوربية .

ويتكلم مالنوسكى Malinowsky علامة الدراسات الإنسانية عن الجزر الاسترالية فيروى قصة الروح التى تسمى عندهم بلوما وتذهب بعد مفارقة الجسد إلى جزيرة أخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون أن الأشياء لها أرواح تنتقل منها إلى حيث تسكن أرواح الموتى ، فيزينون جسد الميت بكل ما كان يزدان به فى الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى كوسى يخاف لقاؤه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ فى إيذائهم ، وحينما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك أطيافا أخرى لها علاقة بأرواح الموتى يتخيلونها دائما فى صورة العجائز القباح وقد يشيرون إلى عجوز حية معروفة فيقولون عنها أنها قد أصبحت واحدة من تلك الأطياف ذات العلاقة بالموتى ، وأنها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ .

وأفضل المراجع التى يعتمد عليها فى فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التى يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها فى جميع أطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون إليها لدراسة علم الأجناس أو تطبيقه عليها .

ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمنا بين القبائل فى أفريقية الوسطى الطبيب المشهور البيرت شويتزر صاحب جائزة نوبل منذ سنتين [١] ،

(١) كان ذلك يوم صدر الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٥ .

ويؤخذ من مذكراته أن أخوف المحظورات عندها هى التى ترتبط بأهم المراحل فى حياة الإنسان ، وهى الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الأرواح بالأب وتلقنه فى الرؤيا أو الإيحاء أسماء الأشياء التى ينبغى للوليد أن يتجنبها فى حياته وإلا أصابه الأذى من الأرواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة تحاط الصبية بالمراسم والعبادات التى تفرضها كل بيئة على حسبها . وأشق ما عاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقاربة أجساد الموتى وهو محتاج فى مستشفاه على الدوام إلى حمل هذه الأجساد ومواراتها .

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب فى جواره أن المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على إنسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحى من أبيه أو كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب أن بعض المنذورين لهذه المحرمات قد تأتى شفاؤهم من الوهم الذى غلب عليهم بعد إنذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الأدوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العاقبة ولكنهم تخلصوا من عقيدة بعيدة ورسخ فى أخلادهم أن الروح الذى أطلقهم من عقال المحظور أقوى من الروح الذى حظره عليهم ، فهو لا يستطيع أن يتعقبهم بالأذى وإن خالفوه جهرة ، لأنهم دخلوا فى حماية روح آخر أقوى وأعظم وأحرى بالمبالاة والاتباع .

وقد دخلت هذه الأرواح والمحظورات فى حساب السياسة كما دخلت فى حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التى أوفدتها الحكومة إلى أفريقية الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها أن « دراسة النفسية » التى تنطوى عليها عبادات جماعة الماو ماو ضرورية لاستقصاء أسباب السخط وعوامل الثورة ، وعقب الأستاذ ماكس جلكمان Gluckman على هذا التقرير بفصل مجمل عن أصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها أنها تؤمن بإله عظيم خالق العالم ثم تنحى عنه ، وأنه سمع من أناس فى قبيلة الباوروتس Barotse على الزمبيزى الأعلى إن الإلة تخلى عن الأرض ولاذ بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، ولم يبق لهذا الإله الآن

من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهم ، فهم يقولون كلما سألتهم عن مكان بعيد إن الإله نيامبي Nyambe أعلم وأدرى ، ويدعى زعماء القبيلة أنهم ينتمون إلى هذا الإله من ذريته التي ولدتها له بنته قبل أحد عشر جيلا فملكت على القوم في مكانه ، وهذا سر من أسرار الطاعة للزعماء والثورة على الأجانب والمستعمرين .

* * *

ويرى جلكمان أن المراسم والشعائر حلت بين القبائل الأفريقية محل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام الكتابة في تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها وكل حركة تتحركها القبيلة كلها أو بعض أفرادها طلبا للصيد أو انتجاعا للمرعى أو زحفا للغارة على عدوها تتطلب منها الزلفى إلى بعض الأرواح والحذر من بعض الأرواح الأخرى وتلجئها إلى اتخاذ المراسم والشعائر المتوارثة في أجدادها .

وكل ما يصيب الإنسان فهو من كيد روح أو دسيسة ساحر أو من « وراء الطبيعة » على الإجمال . فاذا وطيء فيل إنسانا فقتله فالأفريقي يفهم أن قوة الفيل أكبر من قوة الإنسان ولهذا استطاع قتله . ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا الإنسان هو المقتول ولم يكن إنسانا غيره ؟ أليس هناك سر يرجع إلى تدبير ساحر أو نقمة روح غاضب أو مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟ . وهكذا تلتقي الأسباب الطبيعية المعروفة بالأسباب المجهولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الإنسان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الأحوال .

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السحر وأساليبه الموافقة والمضادة التي تلجيء الأفريقي من ساحر إلى ساحر ليبطل رقيته ويفسد مكيدته ، فلا ملاذ عندهم من السحر إلا إلى سحر مثله أو أشد

منه ، ولا تعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها إلا أن تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الأرواح [١] .

* * *

وقد حاول الرحالون والباحثون فى الأجناس البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد فى الأرواح إلى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا إلى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة .

فمنهم من يرجع بعقيدة الأرواح إلى الأطياف التى يراها الهمجى فى منامه ، وإلى الأحلام التى يرى فيها أنه انتقل إلى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده فى بيته ، فيخيل إليه أن الأطياف تتحرك فى الظلام وتترك الأجسام إذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وأن الذى يحدث فى حالة النوم يحدث فى حالة الموت فيسكن الجسد ويبلى ويتحرك الروح الذى فارقه بفراق الحياة .

ومنهم من يرجع بهذه العقيدة إلى طبيعة الاستحياء أى إلى الطبيعة التى تخيل إلى الهمجى أن الأشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الأحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذى يضرب الأرض إذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين نضرب الأرض أمامه و نعاقبها بجريرة سقوطه عليها وإصابته من صدمتها .

وتتمكن هذه العقيدة فى خيال الهمجى مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والمجاز فى تعبيراتها ، فاذا سمع أن الأرض ولدت عيون الماء وأن أباها انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرجاء أو بالسخط والإعراض .

ومنهم من يرجع بعقيدة الأرواح إلى عبادة الأسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالأسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو

---

(١) من فصل فى مجلة Listener اللندنية الصادرة فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٤ .

الصقر فيحسب أبناؤه مع طول الزمن أنهم تحدروا من ذلك الحيوان، ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا الضرر والسقم إذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره..

ويكاد علماء الأجناس والعادات البشرية أن يجمعوا على إيمان القبائل الفطرية بإله واحد أكبر من هذه الأرواح المتعددة وأخفى منها فى ظواهر الطبيعة .

وقد تقدم من كلام جلكمان أن القبائل فى أفريقية الشرقية تؤمن بالإله نيامبى الذى ارتقى إلى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، وهذه العقيدة على الأرجح من بقايا عبادة الأسلاف التى يختلط فيها التاريخ بالخرافة ، وأصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل فى جدها الأعلى ، فهو ربها جميعا حينما اختلفت أربابها وتعددت الأرواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الأب الشيخ الذى اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة .

ولم ينفرد جلكمان بقصة هذا الإله الواحد الذى تشترك فيه القبائل المختلفة فى أفريقية الشرقية ، فان الرحالين جميعا متفقون على إيمان القبائل الاسترالية برب فوق الأرباب يسمى « نانا » أو يسمى بأبي الجميع (All Father) على مثال نيامبى فى القبائل الأفريقية .

ويتفق الرحالون كذلك على إيمان الأقزام الأفريقيين برب فوق الأرباب تشترك فيه القبائل وإن تعذر عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الأجناس قبيلة فطرية بلغت من ارتقاء الإدراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة إلى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام .

* * *

وليس الهمجى جبانا فان الجبن بين الأخطار المحدقة به أضر به من الشجاعة ، وقد عودته مواجهة السباع والحياة أن يواجهها علانية وأن يصارعها وينصب لها الأحابيل ويستخدم السلاح المستطاع فيما يعنيه أن يتغلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الأرواح والأطياف أمام خطر مستور لا يدرى من أين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد أن يتغلب عليه لأنه عنده فى حكم الأب أو الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصدى له بالأسلحة والفخاخ .

ولابد من مواجهة تلك الأرواح والأطياف بما يكف غضبها ويدفع اذاها ويستجلب رضاها .

ولابد مما ليس منه بد فى النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يجدى فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هى الحيلة التى انتهى إليها ولم يكن له بد منها بحال .

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التى لا تراض بالأيدى والهراوات أو الحراب .

وظهرت البداهة الإنسانية فى هذا التخصص كما تظهر عند الاضطرار إليها فى توزيع جميع الأعمال .

فلم يكن السحرة المتخصصون لرياضة الأرواح والأطياف أناسا ممتلئين بالحياة صالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وإنجاب الأولاد ، بل كانوا على نقيض ذلك أمساخا عزلتهم الحياة أو انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها فى مطالبها ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقد بينهما العلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهم ، ويوقع فى النفوس أثرا واحدا من التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات .

وقد شهد الدكتور شويتزر Schweitzer ترشيح بعض السحرة وقال فى مذكراته الأفريقية « إن الدميم السيىء لا مطمح له فى الحصول على

امرأة يتزوجها ، فان كبراءه لا يشترون له امرأة لنفورهم منه ، ويكون أبوه قد مات فيتملىء بالمرارة ويتحول إلى السحر للانتقام من قومه .

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت Benedict إن بعض قبائل كليفورنيا من الهنود الحمر يتطلبون علم الغيب ممن يصابون بالصرع ويتعرضون للغيبوبة فى بعض نوباته ، وأنهم يفضلون النسوة المصروعات ولكنهم لا يقصرون الكهانة عليهن ، وقد يكون الرجل المختار متأنثا بطبعه لا يصلح للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة (١) .

ووصف الأب هنرى كلوى Callawey برنامج اعداد الساحر اوظيفته فقال إنه قد يبدو فى أول الأمر قويا سليما ولكنه يهزل شيئا فشيئا ويصبح فى عرف القوم « ناعما » ويعنون بذلك أنه يصبح عرضة للانفعال والتأثر ويصوم عن بعض الأطعمة ويتأذى ببعضها وتطرقه الأرواح والأطياف فى منامه ويهدده بعضها بالموت ، ويقول العارفون أنه يوشك أن يملكه روح تتصرف به على حكم الأرواح ، وفى هذه الحالة يصاب أهل القرية بالأرق ويتساءلون عما أصابهم لأن وصول الساحر إلى منزلة « الانيانجا » أى الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر فى المكان بسلام (٢) .

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر فى مبدأ الأمر ، فالكاهن الذى يقوم بمراسم العبادة هو الساحر الذى يدفع أذى الأرواح والأطياف ويستجلب رضاها ويسخرها فى المآرب التى يختارها ، ثم ينفصلان شيئا فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر أو يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونه لكهانته فى أغراض معلومة ويقصدونه لسحره فى غير تلك الأغراض .

---

(١) كتاب ألوان من الثقافة Patterns of Culture

(٢) ديانات الأمازولو Religious Systems of the Amasulu

والغالب أن السحر يراد لمصلحة خاصة أو لالحاق الضرر ببعض الأعداء ويعمد فيه الساحر إلى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع فى جميع الأحوال ، وتستخدم فيه أرواح منقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتآمر على النكاية والنقمة وأن تستجيب لمن يؤدى لها الأجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والأعمال الخفية .

ويلاحظ أن الكاهن قد يكون رئيسا للقوم وكاهنا يؤملهم فى الصلاة والعبادة فى وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل إلى هذه المكانة إلا أن يكون السحر عملا مضافا إلى الكهانة أو فرعا من فروعها التى لا ترتقى إلى مرتبة الصدارة .

ويلاحظ كذلك أن السحرة مشوهون أو مصابون بالآفات ، وأن أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غير مهملة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود .

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فان الكاهن قد يكون من أقدر الناس على الجد والوجاهة والمتعة بالرغد والملذات .

ويسبق إلى الظن أن السحر والكهانة كلها خداع فى خداع من تلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطىء غير معقول ، لأن السحرة والكهان على اتصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين أقوام توارثوا العقائدواحتفظوا بكثير من العادات التى توهموا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وأنها تنفعهم اليوم إذا أحاطوا بعلمها وحذقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه إذا قصر فى بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد فى علاج ذلك القصور بتكرار التجربة أو سؤال الأقدمين الذين سبقوه فى الصناعة ، وهو بطبيعة عمله لا يستغنى عن الخداع والتلبيس فى معاملة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادعا فى كل شىء ولا يزال خادعا مخدوعا فى جوهر السحر كله ، وهو الإيمان بفعل الطلاسم وقوة الأرواح .

وكلما انفرجت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفة السحر ترقى الإنسان الفطرى من فوضى الأرواح والأرباب ونبذ التسوية بينها وتعود التفرقة بينها فيما يطلبه منها ، فمنها ما يقصده للنفع كما يقصده جميع أبناء القبيلة ، ومنها ما يقصده ليتواطأ معه على الإجرام والنكاية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم بتأجير أنفسهم للنكاية والعدوان .

ويحدث فى هذا التطور من التمييز بين الأرواح والأطياف أن تعرف بأسماء وتوسم بملامح وتتلبس « بشخصيات » وتتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لا يقدر سواها .

وفى هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتهيأ الذهن للتمييز بين عمل الإله وعمل الشيطان .



أنواع ودرجات في الحرام والمحظور

تكاد المحرمات فى القبائل البدائية أن تربى على المباحات والمحللات . لأن المحرمات تشمل القداسة والنجاسة والعصيان والاحتقار والاستقذار . فهناك أمور محرمة لأنها عظيمة مبجلة ، وأمور محرمة لأنها نجسة أو مشؤومة ، وأمور محرمة لأن إتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وأمور محرمة لأنها تحتقر وتعاف .

وعدد هذه المحرمات فى جملتها كالخير يكاد يشمل كل عمل يزاوله الإنسان الفطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داخلا فى التحريم على وجه من الوجوه ، لأنه لا يباح إلا بصلوات وشعائر يعرفها الخبراء ولا تعم معرفتها كل أحد ، كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من أعمال الجماعة أو الفرد ، فإن الخوف من الإقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلها فى حساب المحظورات .

وقد ترقى الإنسان وترقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقابل بين القداسة والنجاسة فى الممنوعات ، فكلمة الحرمة فى اللغة العربية تدل على الشيء العزيز العظيم الذى يصان ويحمى بالأرواح والأموال ، وقد يشمل الحرام كل إثم يعاب أو يعاف .

وكلمة المنيع أو الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على الرذيلة التى يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها .

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين على الذكور والإناث الذين ينصبون أنفسهم للبغاء فى حرم الربة « عشتروت » أو السارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة فى كتب العهد القديم بكلمة المأبونين

والزانيات ، وهى فى الأصل من القديس أو المقدس ، ويقال عن الربة نفسها أنها كانت خليلة الأرباب ولدت منهم مسبعين إلها « إيليم » .

وفى القبائل البدائية ثلاثة أنواع من المحرمات المقدسة وهى « الطوطم » والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام الممنوع .

فالطوطم Totem هو الحيوان الذى تحرم القبيلة قتله وصيده لاعتقادها أنها تناسلت منه أو لأنها ترمز به إلى معبودها وأصل وجودها .

والوثن أو التعويذة — وهو الذى اصطلح علماء الأجناس على تسميته بالفتيش Fetish — شيء جامد مصنوع أو طبيعى يحمل فى أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة ما دام على شرعتها فى المباحات والمحظورات ، وقد تكون الوثن صورة أو حجرا أو حصاة أو قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما إليها ، يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار .

والمحظور الثانى أقل درجة من الطواظم والأوثان ؛ لأنه قد يتفرق ويتخصص فيكون حراما عند بعض الناس حلالا لغيرهم فى البيئة الواحدة ، بل قد يكون مستحبا مطلوبا لمئات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتور شويتزر ضروبا من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض الأرواح المزعومة التى تكشف عن إرادتها قبل وضع الجنين ، فتخبر أباه فى الرؤيا باسم « التابو » الممنوع على الوليد ، فمن هذه المحظورات أكل بعض الطلح أو البلور ، ومنها ضرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل المكنسة أو بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات فى شأن « التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم أن الوليد يولد ذكرا ثم يتحول إلى أنثى إذا خولفت نبوءة أو علامة مرصودة ، ويفعل الوهم هنا فعلة القاتل الذى لا تجدى فيه النصيحة ولا الإقناع ، ففى ناحية « سمكينا » رأى الطبيب صبيا فى مدرسة البعثة أنبأه رفاقه أنه أكل من

إناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يغسل ، وكان الطلح محظورا على الصبي بنبوءة آبائه ، فلم يكد الصبي يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه التشنج إلى أن مات بعد ساعات .

وتحيط هذه التابوات كثيرا بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة في الذكور والإناث ، فيندر بين قبائل الأرض البدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتنعزل الفتاة ولا تكلم أحدا غير أمها أو لا تكلمها إلا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبي بعيدا من بيته ليغسل في العيون المقدسة من روائح الأنوثة التي لصقت به من مصاحبة أمه ، تجرى له الكهان أو كبراء السن شعائر الفطام ، ومنها في بعض قبائل الهنود الحمر أن يفارق أمه زمنا أو يدخل الكوخ وهي مستلقية على بابه فيطأ على بطنها علامة الانفصال في موضع حمله حيث اختلط بجوف الأنثى وهو جنين .

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر أنهم ينوطون نسبة الابن إلى أبيه بالمراسم والشعائر ولا يعتقدون أن مجرد الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق الولادة والنسبة إلى الآباء ، ففي القبائل يفرض العرف على الرجال أن يقدم زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك أن ينسب أبناءها جميعا إليه ، لأنه هو الذي جرت بينه وبينها مراسم الزواج .

ولا يعجبن أبناء هذا العصر من تلك الخرافات التي تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الأبناء والآباء ، ففي عصرنا هذا من يعتقد أن الولد من نسل الشيطان إذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوع الأمراض الزهرية في العائدين منها فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشرت عدواه بين المتزوجين والمتزوجات في أواخر القرن الخامس

عشى أصدر الإمبراطور مكسيمليان منشورا ندد فيه بالخطاة — وأنذرهم بالتوبة أو تدوم هذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان [١] .

وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد مذهب المؤرخين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها أنها حيطة اجتماعية تهتدى إليها بديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الأبرياء من عدوان المجرم والإجرام ، فكل هذه المحرمات إنما ترجع إلى شيء واحد وهو إغضاب رب أو روح وتخطى الحدود التي تمنعها الأرباب أو الأرواح ، ولها كلها علاقة بعالم الخفايا والأسرار وما نسميه اليوم بعالم ما وراء المادة لأنه لا ينحصر في المحسوسات المادية . وأما الجرائم وعقوباتها فهى أعمال مفهومة مقصودة ترجع إلى الأسباب الطبيعية التي يحيط بها علم الإنسان كما تحيط بها إرادته ، وهي تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام وأداء الغرامة والدية ، بل يستمد الثأر قوته أحيانا من عالم الروح كما يقال عن روح القتيل فى قبائل الجاهلية العربية أنها لا تزال هامة مقيدة بجانب القتيل تنادى العابرين بها : اسقونى اسقونى حتى يؤخذ بالثأر فتشفى بالرى وتستريح فليست المحرمات الدينية هى التى تتوقف على مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هى التي تتوقف أحيانا على عالم الأسرار والأرواح .

وقد ثبت من أطوار المحرمات فى القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الإنسان فى ثلاثة أدوار متشابهة .

فالطور الأول أن ترقى من الحدود المحلية إلى حدود عالمية أو كونية تشمل السماوات والأرضين ، فبعد الرب الذى يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة فى غابة أو بقعة فى جهة من جهات الإقليم يترقى الإنسان إلى فهم الرب الذى يسيطر على السحب والأنهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوانين التى تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى إدراكه لقدرة الرب الذى

(١) كتاب الشياطين والعقاقير والأطباء لمؤلفه هوارد هجارد .

Devils, Drugs and Doctors by Haggard.

يملك زمامها ويصلى له المصلون لإجرائها فى مجراها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذى يحذرون عقباه .

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتى بعده طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامة فيما يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن إنما يتوسل إلى الآلهة ويتحرى رضاها بالصلوات التى يحسنها دون غيره ، أما وهو ساحر فهو يسخر الأرواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعاون على العمل الكريه الذى ينفر منه المشتركون فيه ولا يجهرون بسره عن رضى واختيار .

وكلما اتضح التمييز بين العبادة والسحر اقترب الإنسان من الطور الآخر الذى يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين .

ففى الحياة البدائية يظل الإنسان رهينا بمشيئة الأرواح التى تنفع وتضر وتنطوى له على الصداقة أو على العداء ، وكلها فى رأيه تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه ، ولكنه كلما ترقى فى التمييز بينها ملك الميزان الذى يزن به أعمالها وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرؤسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها ، وأحس فى طويته أن يطيع بعضها ضرورة وغصبا ويطيع بعضها حبا واختيارا لأنه أهل للطاعة والرجاء .

ومن هنا تصبح الأرواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماضية على السنن القويم أو منحرفة عن هذا السنن إلى الخطة العوجاء التى ينكرها كبار الأرباب .

ومتى أتيح للإنسان مقياس يقيس به الأرواح والأرباب ويقيس به أعمالها وحقوقها فهو إذن أهل للمشيئة والتبعة وأهل للتمييز بين الخير والشر وبين سلطان الإله وسلطان الشيطان .

أنواع الشيطنة

ما هي أنواع الشيطنة في العالم :

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا إذا وضع في صيغة أخرى ، فسألنا : ما هو موقف الشر بالنسبة إلى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا أيضا نتبين أن فكرة الشيطان أعمق جدا مما يخطر للمتعجل الذي يحسب أنه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلفيق ، أو يحل كل مشكلة باحالتها إلى جهل الأقدمين وضلالهم في الحس والتفكير .

فهناك صور للشيطنة بمقدار ما في الذهن البشري من فكرة عن الشر في هذا الكون : هل الشر قوة أصيلة ؟ هل هو قوة إيجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلطية ؟ هل هو عدم الخير ؟ هل هو نقص الخير ؟ هل هو عقبة في طريق الخير ؟ هل هو عقبة تريد وتعمل ما تريد ؟ هل هو عقبة لا إرادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه إلى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشري قد تمثلت في صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي تدعو المفكر الذي يحترم عقله أن يفهم الصور الدينية على حقيقتها أنها لغة حية تصور الوجود الحقيقي تصويرا صادقا على أسلوبها الذي يستحق الفهم والتعمق والنظر إلى ما وراء الظواهر والألفاظ .

كان الشر أرواحا ضارة متفرقة في اعتقاد الإنسان على الفطرة الهمجية فلما أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته في حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة في هذا المضمار .

كان الشر في تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معادلة لقوة الخير :

كان فى الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار .

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، وإذا غاب الليل فهناك نهار .

كان للنور دولة وللظلام دولة ، وكان لهذه جنود ولتلك جنود ، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لأن ينفرد بنفسه فى معزل من القوة الأخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته وبعمله كما يوجد الضدان الصالحان للحياة وللبقاء .

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التى يصنعها ، وكل منها حسن فى نظر نفسه ، محمود بمقياسه لا يبالى مقياس غيره ولا يتمناه .

ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن إلى حين ينتهى آخر الأمر بهزيمة الظلام وغلبة النور ، ثم يبقى الظلام شيئا يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولا يظهرون للأبصار ، وإنما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال .

وعظم التفاوت بين القوتين شيئا فشيئا حتى أصبحت قوة الشر كقوة الأمير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئا إلى جانب سلطانه ولكنه لا يستطيع جميع الأشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه فى كل شىء .

ومن الهين متعادلين تحول الخير والشر إلى إله كبير وإله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الإله الصغير وينهزم الإله الكبير ، وقد يؤول الأمر بينهما إلى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالا إلى أن تزول الأرض والسماء .

ثم آمن الناس بإله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر إلا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر فى هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله .

وفى هذه الصورة ظهر الشيطان فى ديانات الأمم الكبرى ، ثم ظهر فى الديانات الكتابية بمختلف الأسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والإفساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين ... كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الأعمال .

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملى للنقص فى عيوبه ، أو تقف فى طريق الكمال عقبة تصد الساعين إليه ، أو تزيف « العملة » الإلهية فتجعل الزائف منها كالصحيح فى رأى المضلل المخدوع .

ولكنها فى جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموجبة الموجدة بأية حال .

وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه .

وقد يخرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق وينقصه ويستر محاسنه ويبدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تابعا ولا يعمل مستقلا فى كون من الأكوان غير الكون الذى خلقه الله .

وفى هذه المراحل جميعا يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى . فهو المتمرد أو هو « الضد » أو هو الواشى النمام أو هو الساعى بالفتنة والمغرى بالفساد والموغر للصدور .

وما من اسم للشيطان بين هذه الأسماء إلا وهو يحمل فى دلالته معنى الإفساد والمنع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والإنشاء إلى جانب قدرة الله .

ولما تقررت المقاييس الإلهية فى الأخلاق والأعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعا لها وبالنسبة إليها ، فكان الجديد فيها أنها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترسم اعتباطا فى الواقع أو فى الخيال .

وقد عالج الشراح الدينيون أن يلخصوا « الشيطنة » فى صفة واحدة تجمع عنصرها ويقوم به كيانها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لا تحسب من لوازم الشيطان إلا بعد علم بوجود الإله المتصرف فى المقادير والأكوان .

فالكبرياء افتئات على مقام الإله ، والعصيان خروج على شريعته ، والحسد إنكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الأبرار حينا بعد حين إذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولكنها إذا كانت قوام الطبيعة كلها فهى صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الإلهية فى الصميم وهى الحب ولوازمه من البر والإنعام . اما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء .

على أن الأرواح الأولى فى جاهلية الإنسان قد تطورت فى اتجاه آخر مع هذا الاتجاه فى مجال الخير والشر وعالم النفس الإنسانية بما يعرض له من صلاح وفساد .

ذلك الاتجاه الآخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعة وظواهر السماوات والأرضين .

فهنا أرواح من الجان الخفى لها عمل غير صلاح النفس الإنسانية وفسادها ، ولها قدرة خاضعة لسلطان الإله ومن يصطفيه من عباده ، وينسب إليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الإنسان .

وليست قدرتها هذه لأنها تعلمت ما لم يتعلمه الإنسان ، ولا لأنها ذات عقول أكبر من عقله أو أصلح منه للفهم والتفكير .

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الأسرار الذى تعيش فيه ، فهى تسخر القوى الطبيعية لأنها تعيش بين أسرارها وتحسب منها أو فى حكمها . وإذا فطنت للمعنى الدقيق الذى لم يفطن له الإنسان فانما تأتى فطنتها كذلك من

اطلاعها على الدقائق والخفايا ونفاذها إلى العالم الذى يطرقه حس الإنسان ولا يتسلل إليه عقله .

وهذه هى شياطين الفنون والصناعات ، تبنى الصروح وترفع الصخور وتنهض بالأثقال التى تعايبها كواهل الإنس وتنوء تحتها أدواته وصناعاته ، وتدخل فى ثنايا الخفاء فتلهم الشاعر ما يدق عن سائر بنى آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وأمثالهم من أصحاب الفنون حال كمس الجان وغيبوبة المخبولين لأنهم يخاطبون الجان ويفقهون عنها ويلحنون منها أسرار لغاها وإشارات وحيها .

وتلك هى أنواع الشيطنة من جانبيها فى اتجاه الضمير وفى اتجاه الذهن والقريحة .

فى اتجاه الضمير ترتبط « الشيطنة » بالصلاح والفساد والخير والشر ومساعى الإنسان نحو الكمال والرشاد .

وفى اتجاه الذهن والقريحة ترتبط « الشيطنة » بالأسرار والبواطن وبالوحى الخفى وغرائب العبارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل وإشارة .

وسيكون لكل نوع من هذه الأنواع نصيبه فيما يلى من الصفحات .

أسماء الشيطان الأكبر

تمثلت قوة الشر « العالمية » فى شخصيات مرسومة الملامح معرفة الأسماء ، اشتهرت بها فى كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التى سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسنذكر هذه الشخصيات بملامحها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التى لها علاقة بصورة الشيطان كما تخلفت فى الأعصر الحديثة ، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لأسماء الشيطان الأكبر التى بقيت إلى اليوم لورودها فى الديانات الكتابية ولأنها قد أصبحت ذات مدلول لغوى إلى جانب مدلولها الدينى ، فان حضور هذه الأسماء فى الذهن يبرز معالم الطريق إلى الوجهة التى انتهت إليها سوابق التاريخ ومقدماته ، منذ ظهرت « شخصيات » الشيطان الأكبر فى الحضارات الغابرة إلى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان فى كل ديانة من الديانات الكتابية التى أسلفنا أن اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالته اللغوية إلى جانب دلالته الدينية .

واسم « الشيطان » بالألف واللام هو أشهر هذه الأسماء ، لأنه ورد فى كتب الديانات الثلاث ، ودخل فى تعبيرات اللغات الأوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطانى ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التى تنطوى على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالإيذاء كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه .

والرأى الغالب إن كلمة « الشيطان » هذه عبرية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية أنها لغة اليهود وأن ديانة موسى

عليه السلام سابقة للمسيحية والإسلام ، ولكنه ظن يصدق فى حالة واحدة : وهى أن يكون اليهود أصلاء فى الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من المشارقة إليه ، إلا أنها حالة لم تثبت . وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها ، فان اليهود قد وصفوا الشيطان بعد هجرتهم إلى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الأمم السامية غير اليهود .

والأرجح عندنا أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها فى اللغة البابلية ، لأن اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل تقدير .

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن ، وفى هذه المواد معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق ، وهى تستوعب أصول المعانى التى تفهم من كلمة الشيطان جميعها .

فالشطط من الغلة الذى يدخل فى أخص عناصر « الشيطنة » والشط بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان .

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه ، وانطلق شوطا أى ابتعد واندفع فى مجراه ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال .

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان ، ويقال فى بعض التفسيرات إن هذا المعنى هو المقصود من « طلعها كأنه رءوس الشياطين » ، وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة قط بين الحية والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام — وهو عربى باتفاق المؤرخين — أن الشيطان كان معروفا بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد خروج بنى إسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والأدبية مع السحرة

والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزيدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العبرية .

* * *

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر فى اللغة العربية هو اسم « إبليس » الذى يختلف اللغويون فى أصله كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان إلى إحدى اللغات السامية .

والمتكلم العربى يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه « إبليس » كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهى دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعارا من صفات إبليس فى العقيدة الإسلامية .

ويرى بعض الغربيين أن الكلمة فى أصلها يونانية من كلمة ديابلوس Diabolos التى تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقعية ، وأصلها فى اليونانية من ديا Dia بمعنى أثناء وبالين Ballein بمعنى يقذف أو يلقى ، ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم إلى معنى الوقيعة .

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين إن كلمة ديفل Devil أى الشيطان فى اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر Do-evil أى من كلمة « دو » بمعنى يفعل وكلمة « إيفل » بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب إلى صفة الشيطان من الصفة التى توحى بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف .

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكننا على يقين أن « شخصية » إبليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التى تستفيدها من مادة « الإبلاس » أى فقد الرجاء . فان ضياع الأمل ألزم صفات إبليس على السنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذى يضرب

بأمل إبليس فى الجنة مرادفا لمعنى الأمل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة إبليس وكلمة الشيطان فى ملامح الشخصية . فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء . وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الملموحة بين الشيطنة والابلاس .

والغربيون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية فى صيغة النعت وقلما يستخدمونها فى صيغة العلم . فاذا قالوا عن شىء أنه « ديابولى » أو إبليسى فالمفهوم منه أنه عمل من أعمال التمرد والجبروت لا يلزم أنه سيىء كل السوء وإنما يلزم أنه خلا من الصفات الإلهية أو الصفات « الرحمانية » على الخصوص . وكذلك توصف الثورات الجائحة التى تدمر الظلم وتنسف معالم الطغيان . فهى من الجبروت بحيث توصف « بالديابولية » ولكنها من العنف بحيث تخالف الأعمال « الرحمانية » فى الرفق والرضوان .

* * *

ومن أسماء الشيطان التى دخلت فى الدلالات اللغوية اسم لوسيفر Lucifer أو حامل النور ، وهو فى أصله اللاتينى اسم الزهرة حين تكون « كوكب صباح » ولم تكن له من مبدأ الأمر دلالة سيئة ولكنه جاء فى كلام النبى أشعياء فى معرض التبكيت لملك بابل الذى سمى نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » إن المقصود هو الزهرة وإنه كناية عن الخيلاء التى تقود صاحبها إلى السقوط . على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح أنه تحدث عن نفسه فقال : أنا كوكب الصبح المنير .

وإذا وصف إنسان اليوم بأنه شبيه « لوسيفر » فالمفهوم من هذا الوصف أنه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، ولا يشعرون له بالرثاء الذى يصاحب المجد المنهار .

ويذكر الأوربيون بعلزبوب وبعلزبول فى مقام التهكم بالرئاسة الشيطانيه ، وأصل بعلزبوب إنه إله معبود فى عقرون يقال عنه إنه رب الطب وأنه يشفى المرضى لأنه سيد الشياطين ، وكانت الأمراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصرع والهزال تنسب إلى تلبس الشيطان بجسم المريض .

ومعنى بعل زبوب رب الذباب ، فحواه العبريون إلى بعل زبول أى رب الزبالة سخرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ، لأنهم كانوا ينكرون عبارة البعل ويدعون إلى عبادة « يهوا » أو الايل . وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات السيد المسيح فى شفاء المرضى أنه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعلزبول .

والدلالة اللغوية التى يفيدها وصف « بعلزبول » فى أساليب العصر الحاضر هى الإقرار بالقدرة على قمع الشر لأنها مستمدة من الشر نفسه . فهى الشيطنة التى تقمع الشياطين لزيادتها عليها فى الشيطنة . لا لأنها تصلح تبتغى الإصلاح ، وهى إلى ذلك لا ترتفع فى قدرتها عن قدر الزبالة والذباب .

* * *

وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفيلس ، ويقال إنها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور ، ويرجحون أنها من « مى » بمعنى لا و « فوس » بمعنى نور و « فيلوس » بمعنى محب . ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهى مستمدة من السحر البابلى الذى سرى إلى العرب على أيدى اليهود واليونان ، وتمثل روحا من أرواح النحس التى تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء .

وشيطنة مفستوفيلس « ذهنية » موسومة بعيوب الذهن فى أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثل العليا واستباحة كل شيء بالحيلة والمكر والدهاء ، فهو ذهن يصنع الشر لأنه لا يبالى الشر والخير على السواء ، وإذا طاب له الخير فعله غير مغتبط بفعله ، كما أنه يفعل الشر ولا يلوم

نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل فى الصلاح والفضيلة لأنه يثبت بذلك فلسفة السخرية وسخافة المثل الأعلى ، ويدفع عن نفسه نقد الناقدين واحتقار المحتقرين .

وقد كان مفستوفليس فى القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رجال الدين يتخذونه مثلا للعلماء الكفار الذين غرتهم المعرفة الدنيويه فانصرفوا إليها وشغلوا بها عن معارف الدين .

ويتردد من حين إلى حين اسم إله الخراب أو إله القفار « عزازيل » .

وهو اسم ورد فى العهد القديم واختلف الشراح فى نسبته إلى أصله ، ويرى بعضهم أنه من مادة الإزالة العربية ، ويقول آخرون انه كان رئيس الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فأعجبتهم « بنات الناس » وتزوجوا منهن . ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضا إن إبليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء .

وقد كان من عادة اليهود أن يقترعوا على ضحيتين تذبح إحداهما للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطايا إلى عزازيل رب الأرض الخراب ، وشيطنة اليوم فى لغة المجاز مرادفة لمعنى العظمة التى تحتفظ بحق التضحية لها وحمل القرابين إليها ، ولو كانت تساق إلى عرش يستوى على مملكة الخراب .

وليس بين أسماء الشيطان الأكبر التى دخلت فى مدلولات اللغة ما هو أشهر ولا أدل من هذه الأسماء : الشيطان وإبليس ولوسيفر وبعلزبول ومفستوفليس وعزازيل ، فهى اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معانى الشيطنة كل ما نستقصيه فيما يلى متفرقا عن تواريخ الأمم والديانات حول « قوة الشر الكبرى » أو قوة الشر العالمية ، فى موقفها أمام عوامل الخير والكمال .

الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التى تمثلت فيها قوة الشر فى صورة شخصية مميزة باسمها وملامحها حضارة مصر القديمة .

فمن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التى تستوفيها الروح لتنعم بالحياة الأبدية فى العالم الآخر . ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤجلا أو منتظرا فى المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوى ، ولكنه كان امتدادا للعالم الذى هم فيه وهو الديار المصرية ، فخراب الدنيا هو خراب الديار المصرية وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالما قائما بعدها ، وإنما كانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين فى كل وقت . أحدهما ظاهر يسكنه أحياؤهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب فى الأرض فانما هو عارض تجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الأولى مع انتظام الحكم على سن العدل والإنصاف ، وتأتى الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الأرض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها فى ظل حكومة كحكومتها ، أو هى فى ظل حاكم خالد كان فعلا فى يوم من الأيام حاكم الأرض المصرية أثناء حياته الفانية .

وفى كل أمة من الأمم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب قصة عن نقمة الإله الأكبر على الجنس البشرى وندمه على خلقهم وتفكيره فى إبادتهم عقابا لهم على ذنوبهم ، وتختلف هذه الذنوب باختلاف الأمم والكهانات ، فهى تارة مسألة تقصير فى الضحايا وتارة مسألة غير « إلهية » من المعرفة البشرية وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال باللذات إلى غير ذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب فى جميع الأساطير الأولى .

أما هذه القصة فى الديانة المصرية فهى قصة حاكم يغضب على المحكومين لأنهم ثاروا عليه وهموا بخلعه لأنهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة على ولاية الأمور!

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الأول الذى بنى حوالى سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد . وخلاصتها ان الإله الأكبر « رع » علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم فى أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأى على إبادة العصاة ، وأرسل الإله الأكبر عينه عليهم فألقاهم قد هجروا الديار ولاذوا بالجبال ، وتعقبهم جنوده فأثخنوا فيهم القتل حتى فاضت الأرض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارى هنا وهناك من زبانيته . فحزن « رع » لأنه أحس حقا بالعجز عن إبادة العصاة أجمعين وطفق بعض الأرباب يؤاسونه ويقولون له : إن مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه .

وتتم القصة على صورة أقرب إلى الرفق والمسامحة فيقال فى ختامها إن « رع » سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والإقامة فى السماء ، فندم الناس على كنودهم وعصيانهم وتابوا إليه فلم يعدل الإله الأكبر عن نيته ولكنه أمر إله الحكمة « توت » أن يلقن الناس أسرار الحكمة وتعاويذ الوقاية من الآفات ومنها الهوام والثعابين وأن يهدى بها إلى السلامة من هو أهل للهداية .

وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف فى الأساطير الأول . فأشدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل ملك يهمه أن يبالغ فى بطش الأرباب راجعوا الإله الأكبر وراح بعضهم يمزج الجعة بالأصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للأرباب الساخطين أنه قد أريق منه ما يكفى للزجر والعقاب .

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الإله الشرير موروثة من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شيء فى مصر القديمة بالمحافظة

الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختلاف والتناقض على حسب الحواشي والإضافات التي تلصق بها من كل حقبة مرت بها في طريقها البعيد .

ففي صورة إله الشر بقية من عبادة الأسلاف وبقية من امتزاج السحر بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى ومصر العليا ، وفيها مع ذلك اشارات تدل على أنها في جملتها معلومات تاريخية واقعية عرض لها التشويه وانطوت في عداد المجهولات التي يستدل عليها بالتخمين والترجيح .

ومهما يكن من خلاف في العقائد المصرية العريقة فالقاعدة المطردة في تمحيص لبابها أنها مشتملة ولابد على شيء يتعلق بكيان الأسرة وشيء يتعلق بكيان الدولة وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعي ، أو على ما نسميه اليوم بالنظام .

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات المتعددة على طول الزمن ، فهو صورة الأخ الشرير والحاكم المغتصب والمفسد الذي يعبث في الأرض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هي صورة الإله « ست » إله الظلام في عقيدة الشعب المصري على الأقل ، لأن عقائد الكهنة كانت تخالف العقائد الشعبية في تفصيلاتها إن لم تخالفها أحيانا في الجملة والتفصيل .

وقد مضى زمن كان فيه « ست » معدودا من آلهة الحق والاستقامة وكان الإله الموسوم بالشر هو « ابيب » الذي كانوا يرسمونه في صورة حية ملتوية تحمل في كل طية من جسمها مدية ماضية ، وتكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال إله الشمس « رع » في حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء إلى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود إلى الشروق ، وقد خصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الإلهين إله الشمس وإله الليل ، أو إله النور وإله الظلام .

وربما كانت القضية كلها فى أوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقى لكل منهما حزب يعظمه وينتصر له حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبة .فتضاءل أنصار الفريق المغلوب وشاعت عنه أنباء الشر والتهمة ، وانتهى بتمثيله فى صورة « أبيب » إله الظلام وتمثيل أخيه فى صورة « رع » إله النور .

ولا يبعد أن يكون فى الأمر خيانة زوجية أو شبهة من قبيلها ، لأن أسطورة أوزيريس تروى أن الإله « رع » فاجأ الملكة « توت » زوجته وهى فى عناق « سب » فلعنها ولعن ذريتها وأقسم ألا تلدن فى يوم من أيام السنة ، فلجأت إلى الساحر الأكبر « توت » الذى كان مشهورا بعلم السماء وتسخير الأرواح العلوية والسفلية فاخترع أيام النسىء الخمسة لتضاف إلى السنة ، واستطاعت توت أن تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست فى اليوم الثالث من هذه الأيام ، وهى غير محسوبة من أيام السنة التى يطلعها « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفى إحداهما — أو كليهما — طبيعة الظلمة أو طبيعة النور المختلس بغير علم من إله النور .

أما الرواية التى استقرت عليها قصة أوزيريس وست فهى أن الأخوين تنافسا فخدع « ست » أخاه وصنع له صندوقا أغراه بالنزول فيه ليقيسه على جسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه فى النيل ، فجمعتها ايزيس — زوجة أوزيريس — بمعونة الساحر توت ، وبوأته عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس فى حالة الغروب .

وهناك رواية أخرى لعلها هى الأرجح والأقدم فى التاريخ ، وخلاصتها أن « ست » لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا وخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك فى حياته وبعد حياته ، ولم يكن للإله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب فى مكان « كوم أمبو » اليوم حيث كان معبد التمساح .

ومما يرجح أن القضية فى أوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك

إن اسم « ست » محى من الهياكل بعد زمن ، وأن أتباعه لازوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم فى عاصمة المملكة الشمالية ، وأن ملوك الرعاة أعادوا لـ « ست » كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فبنوا له هيكلا فى مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك .

وقد استعيرت صفات « ست » من صفات أوزيريس على التناقض والتقابل بين الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس « أنه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الأرباب والناس وإله الآلهة وملك الملوك ، وسيد العالم الذى لا يفنى سلطانه » .

أما صفات « ست » فهى نقيض الخلود والسيادة على الأرباب والناس ، فلا سيادة له على غير الأرواح الخبيثة والأحياء الدنيا . ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانية فى صورتها المبهمة ، ويجعلون له أذنين منتفضتين كناية عن الإسراع إلى استطلاع الشر ، وذنبا شائلا كناية عن الحران والأشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب ، لأنهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتقاض فربما كان هذا من أسباب حظوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عونا لهم وخصما للسلطان الزائل الذى أغاروا عليه ، وأحبوا أن يتقربوا إلى عباده فى الجنوب تمهيدا لضم الأقاليم جميعا فى مصر العليا إلى دولتهم التى استقرت بمصر السفلى زمنا وتوقفت عندها جهودهم قبل إجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال .

ومن أصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم فى أقدم المأثورات المصرية أن الأساطير العريقة فى القدم تروى لنا من أخبار خصومه ست وأزويريس أن « ست » اتهم أخاه بالجور عليه فوكلت الأرباب قضيتهما إلى أمينها الخاص الذى يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمن على قضاياها — وهو الإله توت — فتبين له صدق أوزيريس وكذب ست ، وخرج هذا مدينا بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصرى فى الزمن القديم

يتقرب إلى إله الحكمة عسى أن يتولى الدفاع عنه بعد الموت وينصفه فى قضيته كما أنصف أوزيريس من أخيه المفترى عليه .

وقد شغل « ست » وظيفة ضرورية فى عهود الأزمات التى تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة . فقد فقد كان « ست » يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفة لا يستطاع دفعها ، ومن هذه الآفات ريح السموم وعوارض الجفاف والقحط وأوبئة المرض وسائر الأمراض التى كانت تنسب من قديم الزمن إلى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضا فى بقاء السحر الخبيث لأنه كان على علم واسع بفنونه ولم يكن فى وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغير وسائله وأسراره ، ولهذا كثرت فى الطب المصرى القديم مقارنة الدواء بالتمائم والرقى وكثرت عندهم التمائم والتعاويذ ومنها ما بقى إلى اليوم فى صور الجعل والحشرات والأساور والقلائد التى لا تصنع للزينة ولكنها تقرن بالأدوية والعقاقير طلبا للشفاء ، ويقول الأطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر أن الدواء هو الذى يشفى ويبرىء من المرض ولكن التمائم والتعاويذ هى التى تمنع « العكوس » من فعل أرواح الشر وأطياف الظلام .

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون إلى السحر لمغالبة الأرواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثانى بأصحاب التمائم والتعاويذ على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيما منه لقدر السحر ولكنه فعل إيمانا بضرورة اختيار الترياق من جنس المرض . ولكل شىء آفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال فى كل زمان .

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعوا الآثار ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الأنقاض والمحظورات ، وكلها تروى أعمال السحرة فى مجازاة الأشرار كقصة الساحر « أبانير » أى فالق الصخر الذى استخدم سحره فى الاقتصاص من عشيق زوجته فصنع على يديه

تمساحا من الشمع أرسله فى البركة التى يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليبلغ الملك نبأ هذه العقوبة كى تحدث فى ملكه بعلمه وإقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين إليه وإلى الفضيلة فهو من قبيل « خفة اليد » التى يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة كما فعل الساحر « خنشا منخ » حين سقط الخاتم من أصبع إحدى الجوارى المصاحبات للملك « سنفرو » فى زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق إلى جانب الخاتم المفقود ، ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفعه رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان .

* * *

يقول صاحب كتاب صناعات السحر فى مصر القديمة :

« إن السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطبيب . وفى اعتقادهم على الدوام إن الآلهة إنما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الإيمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة » (١) .

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الأسرار إلى أقسام ودرجات . فمنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر وجنوده وقوامه الصلوات والرياضيات الروحية .

ومنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار .

ومنها السحر الخبيث للأغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الأبرار أن يشتغلوا به وإن وجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه .

ويمكن أن يقال على الجملة أن الشر فى العالم كله إنما كان فى عرف

---

(١) The Occult Arts of Ancient Egypt by Bernard Bromage .

الحضارة المصرية « جريمة اجتماعية وطنية » غير مشروعة ولم يكن عنصرا أصيلا فى تركيب الدنيا أو تركيب الإنسان ، وقد بلغ من تطور هذه العقيدة فى تفكيرهم الدينى أن اخناتون استغنى عن الجحيم وأنكر دعوى أوزيريس فى السيطرة على عالم العقاب بعد الموت .

ولا تظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى فى علوم الآثار أو فى علم المقابلة بين الأديان ، فان الذى عرف منه إلى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للنظرة الأولى ضربا من الخيال أو اللعب بالجناس ، ولا نعنى بتسويغ القول بها أنها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعنى أنها فروض واحتمالات لا ترفض ولا يزال من يرفضها محتاجا إلى سند وثيق .

فالمؤرخ بلوتارك يذكر فى كتابه ايزيس وأوزيريس أن « ست » كان يلقب « بيبون » وأن هذا اللقب معناه العقبة المعترضة فى طريق يفضى إلى الخير لتتحول به إلى الشر ، ويقول فى الفصل الثامن والعشرين أن الأساطير تروى أن اليهود هم أبناء « ست » من أتان ، ويعلق المؤرخ « أوليفيه بير جارد » على ذلك فى كتابه عن الأرباب المصرية فيقول إن هذه الأسطورة أصل الخرافة التى شاعت فى تقديس اليهود فى هيكلهم لرأس حمار [1] . ويقول غيره بين الجد والهزل أن شمشون حاربهم من أجل ذلك بفك حمار ، وأنهم لهذا يتبركون بالمخلص الذى يأتى فى آخر الزمان على حمار ابن أتان .

وقد تكرر القول بأن كلمة « ست » و « ستان » أو الشيطان العبرية من أصل واحد ، ولا نزاع فى اقتباس اليونان والعبريين من المصريين فى تصوير « الشخصيات » العلوية والسفلية ، فليس من الأناة أن نجزم ببطلان التشابه فى اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للإله الفرعونى

---

(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الأرباب المصرية .
Les Divinités Egyptienne par Beauregard

كما تقدم ، وليس من الأناة أن نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول اسم الشيطان Diabolos باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والإفساد ، وقديما شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان فى آسيا الصغرى وبين الأثيوبيين واليمانيين فى الجنوب ، وقال ديدورس الصقلى أنه رأى فى « نيسا » من بلاد العرب عمودا للإله أوزيريس وشيئا من قصته ملخصا على ذلك العمود .

وقد ختم الأستاذ بورجارد كتابه الذى أشرنا إليه آنفا عن الأرباب المصرية قائلا أن النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر إلى الشام واليمن ، ونقلها الإغريق إلى اليونان ونقلها الفينيقى قدموس إلى اليونان وإلى بلاده ، وإن أعظم العقول اليونانية كانت تهاجر إلى مصر لتدرس المعرفة المصرية فى طيبة ومنف وعين شمس وسايس ، وعدد منهم ليكرغ وصولون وطاليس وفيثاغورس وافلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم أمما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولا شك فى شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الأبرار وعالم الأشرار فى الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب أن تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الأناة على الأقل أن ينتهى تاريخ « ست » حيث انتهى فى هذا الموضوع وقد قيل أن العزى هى ايزيس وأن مناة هى منوت أو موت ، وأن النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض أناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام كان يسكن إلى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التى تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذى يوسوس له ويغريه بالكفران والعصيان ، وأقل من هذه الملابسات حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحا بعد لما تأتى به الكشوف وتسفر عنه المقارنات .

الحضارة الهندية

ترجح فئة من علماء المصريات أن الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانة المصريين الأوائل ، ويرى برستيدواليوت سميث أن معظم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ومن شعائر تقديس الملوك التى يستطاع التحقق من سبق الحضارة المصرية إليها .

ويرد ذكر مصر فى كتب البورنا التى جمع فيها الهنود الأقدمون قصص الآلهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آبائهم الأولين .

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التى تبلغها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيداً إلى ما وراءها ، فهى لا تكون بطبيعة تلك الديانة إلا من قبيل الشعائر والمراسم ولا يتأتى أن تتخطاها إلى أصول الديانة فى جوهرها ، إذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الطرفين المتقابلين ، ولو أراد أحد أن يضع ديانتين يتوخى فيهما التقابل فى العقائد الأساسية التى تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يبلغ فى هذا التقابل ما بلغه أهل مصر وأهل الهند فى العهود المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال .

والعقائد الأساسية التى تدور عليها كل ملة تتناول وجود الإنسان ونظام المجتمع ووجود العالم كله أو الوجود على إطلاقه ، وفى هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتان موقف التقابل من طرف إلى طرف ، كأنهما عامدتان إلى تصوير سعة الآفاق التى تحيط بالعقائد فى ضمائر بنى الإنسان .

فالديانة المصرية تصون جسد الإنسان وتستبقيه إلى الحياة الأبدية ، والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم أتباعها أن الروح تنسخ جسدها مرة بعد مرة ولا تنال الخلاص إلا إذا فنى الجسد كل الفناء .

والديانة المصرية تعتبر دوام الأسرة آية من آيات النعمة الإلهية ولا تعرف دعاء إلى خالق الكون أحب إلى الداعين من بقاء تراث الآباء والأجداد واتصال العقب إلى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التى تعلق النجاة بالإفلات من دولاب الحياة والموت والرجوع إلى « النرفانا » من طريق « الموكشا » أى اجتناب العلاقة الجنسية ولو فى حالة الزواج .

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانة أهل الهند التى تحسبه شرا محضا وباطلا موهوما ومنبعا لجميع الشرور التى تعترض عالم الحقيقة وتشغل الروح بالأعراض والقشور .

ويكفى هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص فى مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هذه القوة بنواميس الكون الخالدة سواء منها ما يتمثل فى صورة « الذات » الإلهية أو ما يتمثل فى الناموس الأعظم أو « الكارما » الذى ليس له ذات .

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الأديان أشد الحيرة فى أمر « الشخصية » التى تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الأخرى . وأسباب هذه الحيرة متعددة لا يصادفها العلماء بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة فى غير الديانة البرهمية وما تفرع عليها .

من هذه الأسباب أن الهنود الأقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين . وربما تعمد القادمون أن يهدموا عقائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضارب والاختلاط ، ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفاريت الخبيثة أو العابثة التى يسمونها بالـ « راكشا » وينسبون إليها أعمالا كأعمال الشياطين فى الديانات الأخرى ، فان الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة أنها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة أخرى إنها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الأولين الذين سكنوا الهند قبل إغارة الآريين

عليها وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ فى الأذهان من أحاديث القتال بينهم وبين الآريين أنهم أعداء البشر وأنهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم فى كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا فى أساطير العامة إلى أقسام ثلاثة : أحدهما يشبه أرواح « الياكشا » البريئة التى تهيم على وجهها ولا تؤذى أحدا إلا أن يتعرض لها ، والثانى يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادى الإنسان ألد العداء ، والقسم الأخير يلوذ بالمقابر والصوامع ومخالف الموت والخراب ، ويقول من يزعمون رؤيتهم أنهم مشوهون ، بعضهم ذو رأسين وبعضهم ذو ثلاث أرجل ، ومنهم من له عين واحدة فى رأسه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خلاف البشر فى التركيب .

ولا ينسب إلى هؤلاء « الراكشا » عمل من أعمال الإغراء والإغواء ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة ويتلصصون فى الطرق المقفرة ويستبيحون الأذى للكيد أو للعبث والدعابة . ورئيس هؤلاء « الراكشا » المسمى « رفانا » هو الذى اختطف الحسناء « سيتا » زوجة البطل « رام » كما جاء فى ملاحم « الريجيفيدا » ثم حملها إلى جزيرة سرنديب ولم يستطع زوجها أن يهتدى إليها ويخرجها من أسرها إلا بمعونة القرد هنومان .

فالشياطين فى صورة « الراكشا » هم « الشر » الذى أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم فى الصورة التى تنفرهم منه وتحذرهم من كيده ، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه ويدفعون به إلى أقاصى الأرض وزوايا المدن ويستثيرونه أحيانا من فرط الظلم فيثور ويهملونه أحيانا فيهيم على وجهه عاجزا عن الأذى قانعا بالسلامة أو محفزا للانتقام .

* * *

وإلى جانب التتابع فى الديانات والأقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل فى جميع العهود ولا سيما العهود الأخيرة التى تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على أعقاب الكهان المتنسكين

أو الدهاة المتحكمين ، ففى هذه العهود الأخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن في « الوجود » الشرير محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير إلا أن يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم إلى عالم الفناء .

وقد اشتمل الثالوث الأبدى فى الديانة البرهمية على ثلاثة أرباب هم : « براهما » الإله فى صورة الخالق و « فشنو » الإله فى صورة الحافظ و « شيفا » الإله فى صورة الهادم ، فكان الهدم – من ثم – عملا ربانيا يقوم به الإله فى صورة من صوره ويتصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذى ينبغى أن يزول بمهد سبيل الطهارة والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة إليه فى نظام الوجود .

ومن الصعوبات التى تحير علماء المقارنة بين الأديان أن التناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبة فى الديانة البرهمية وفروعها ، فليست هى مقصورة على الإنسان فى أدوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان فى أشكاله المتنوعة بل تعم الوجود كله من الأرباب العليا صور متعددة تقترن النعمة ببعضها وتقترن النقمة بغيرها ، فيدين أناس للإله « شيفا » على أنه مصدر الخير وقائد الأرواح فى طريق الفناء إلى حظيرة « الوجود » الأسنى ، ويرهبه أناس آخرون على أنه سلطان الغضب والنكاية فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطواره .

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العلماء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات فى الإله الواحد ، بل هناك سبب آخر يضاعف هذا التعدد و لا يمنع « الشخصية » الربانية الواحدة أن تتولى أعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية فى معظم الديانات ، وهذا السبب هو إضافة الـ « شاكتى » أى قرينة الإله الأنثوية إلى وظيفته فى المسائل الدنيوية .

. فكل إله له « شاكتى » بمعنى القرينة أو الزوجة ، هى التى تنوب

عنه فى « شئون الدار » أو فى الشئون التى يتركها ولا يتفرغ لها إيثارا للعمل فى الآفاق العلوية .

وتعود الأقاويل إلى « الشاكتى » فتجعل لها طبيعتين . طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة . وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تتسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح « الشاكتى » الواحدة ذات أربعة أسماء غير إسمها الأصلى . وعلى هذا المثال تسمى قرينة سيفا إله الشر باسمها الأصيل « ماهسوارى » ثم تسمى باسم « أوما » واسم « جورى » حين ترجى منها الرحمة والمودة وتسمى باسم « جورى » واسم « كالى » حين تخشى منها النقمة وسوء النية ، واسم « كالى » الأخير هو الاسم الذى يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين واتخذوا شعارهم فى القرابين البشرية قتل الضحايا بغير إراقة الدماء .

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للإله « كالى » بخنق ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاربها ، وتتخيل هذه الآلهة على مثال امرأة عابثة تحيط خصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين وتحمى كل من يطيعها ويتقرب إليها بتلك القرابين ، وعقيدتهم فى ذلك أن الإله « فشنو » يحافظ على الأحياء فيتكاثر عددهم ويعجز الإله « شيفا » عن ملاحقته فى مهمة الإبادة والافناء ، فيستعين « بالشاكتى » كالى على هذه المهمة ويتزلف إليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفك الدماء لأن الدم الذى يراق على الأرض تتولد منه الحياة .

وجماعة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عبادتها ويسفهون أحلامها ويحرمون قتل الحيوان ، بل قتل الهوام والحشرات فضلا عن الإنسان ولكنهم لا ينكرون ربوبية « كالى » ولا يتركون عبادتها على النحو الذى يرتضونه ويحسبون أنه أقرب إلى رضاها ، ومن ذلك أنهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة إلى قتل الأبرياء .

وتلك الأسباب فى جملتها هى التى تحير علماء الأديان كلما أرادوا

أن يحصروا الشر فى « شخصية شيطانية » تنعزل بقوتها عن القوى الإلهية فى أقانيمها المتعددة .

ولكنهم يثوبون فى النهاية إلى عقيدة واحدة مشتركة بين النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر فى صورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هى الإيمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وأن كل ما يربط الإنسان به شر وباطل مثله ، وتشتمل روابط الإنسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل أمل يفتنه بلذة من لذاته أو قنية من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن قاطبة فى « المرأة » لأنها سبيل الروابط الدنيوية التى تقيد الحى بالدورات الأبدية فى دولاب الولادة والموت ، وأد لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن النسل ويثوب إلى « النرفانا » بغير علاقة ترده إلى هذا العالم المحسوس ، ومن ثم يفضى به المطاف فى الآباء المتطاولة إلى غاية كل مطاف من الفناء والسلام .

ويلاحظ أنهم يحيلون الأمر على « الأنوثة » كلما عرضوا لعمل من أعمال الأرباب ينزهون عنه الآلهة ويلحقونه بالشواغل الدنيوية الأرضية .

ويلاحظ كذلك أنهم يقولون عن العالم المحسوس كله إنه « مايا » أو وهم وضلالة ، وأنهم يصورون هذا « المايا » فى صورة أنثى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الأنثى التى تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة ، فيحسون اللذة نعمة تبتغى وهى شقاء أبدى لا يؤدى إلى غير الشقاء .

وليس فى الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذى يسمونه « المارا » من الموت ويقولون أنه يسيطر على السماء السادسة وما دونها من العوالم الأرضية . كأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتن التى تساور النفس ولا تتمثل لها ذات فى الحس أو الخيال .

وهذا « المارا » هو الذى قيل فى قصة « بوذا » انه وسوس له وألح

فى وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الزهد والاعتدال .

فالشر الكونى هو الشر النفسى الذى يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة والاقبال على الأوهام والأباطيل .

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطانا أو أرواحا شيطانية غير الأرواح التى يسمونها بالراكشا ويردونها إلى الشراذم المشردة من أبناء البلاد الأصلاء الذين صمدوا للآريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان واستسلام .

أما « الشيطان الكونى » فهو مرادف للفتنة وكل ما يغرى النفس بمطامع الحياة .

ويصعب على المتتبع للأعمال التى تنسب إلى بعض الآلهة والأعمال التى تنسب إلى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشرى أن يفرق بينهما بغير الرجوع إلى النيات ، فقد تتشابه فى الهدم ولا تفترن عن القصد والنية ، فما كان هدما للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهو خير ، وما كان هذا هدما للتنافس على هذه المطامع والوقوع فى هذه الحبائل فهو من عمل الشيطان كيفما كان الاسم الذى يطلق عليه .

بين النهرين

ظفرت بلاد « بين النهرين » بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الأديان لم يظفر بها قطر آخر . لأنها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان آخر في اتساعه وامتداد تاريخه وتعدد أقوامه وتيسر البحث فيه لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر في رقعة أخرى من الكرة الأرضية ، وهما مقارنة الأديان ومقارنة الأجناس في وقت واحد ، إذ كان وادى الدجلة والفرات وطنا قديما أقام فيه الآريون والساميون والطورانيون ، وبسواء صح أن السومريين الذين أقاموا فيه زمنا قد وفدوا إليه من الصين أو لم يصح هذا القول الغالب فقد صح أن « زرادشت » نبي المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثنوية المجوسية بعض التوفيق .

وهذا التعدد في السلالة يصاحبه تعدد آخر في الأحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين أناس يبنون الهياكل وأناس لا يعرفون البناء ، أو أناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالأرض ومعالمها وعناصر الطبيعة التي تهيمن على أرزاقهم ومساعيهم .

وتتضاعف العناية بالديانات التي نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الأسباب يهتم به الأوربيون وأتباع الأديان الكتابية على العموم ، لأن مراجع الأديان الكتابية تبتدىء في بلاد النهرين منذ عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابي إلى عهد السبي واختلاط بني إسرائيل بالبابليين والميديين واقتباسهم ما اقتبسوه منهم في العرف الديني والشعائر التي لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تأتي عبادة (مترا) وعبادة « المانوية » وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة في دولة الرومان من شواطىء آسيا إلى الجزر البريطانية .

فالعقائد الدينية التى نشأت قديما حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقارنة والاستشهاد فى جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التى يدين بها الأوربيون وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث .

ونحن فى هذا الفصل لا نقصر الكلام على البلاد التى تحصرها الأوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا نمضى معها إلى حدود الحضارة التى تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقا إلى أرض فارس ومن ورائها غربا وجنوبا إلى الأقطار العربية أو الأقطار السامية التى كان لها اتصال بالدولة القائمة فى بابل وأشور ، ولا حاجة بنا — فى هذا الفصل — إلى استقصاء العقائد والشعائر فى هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وإنما ننظر إلى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهرين صلة وثيقة بجميع الأمم التى دخلت فى عداد المؤمنين بالأديان الكتابية ، فليست فى حضارات العالم حضارة أحق بالدراسة فى هذا الصدد من الحضارتين البابلية والفارسية ، وكلتاهما تدخل فى العنوان الشامل الذى نطلقه على أقطار « ما بين النهرين » بشىء من التجوز من الوجهة الجغرافية وبغير تجوز من الوجهة الثقافية .

فنحن نرجع إلى « بابل » لفهم التطور فى معنى « الخطيئة » مميزا من معنى الذنب أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة .

ونحن نرجع إلى « فارس » لفهم التطور فى مذهب « الثنوية » أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر فى الأكوان العليا والسفلى ، ومنها الكرة الأرضية .

* * *

إذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغة نلتمسها فى جميع مظاهرها وهى صبغة الحكم والشريعة ونظام الدولة . فالصبغة التى تغلب على حضارة بابل — على هذا النحو — هى صبغة التنجيم والأزياج الفلكية ، وسنرى

أن علماء المقارنة بين الأديان لم يلتفتوا إلى هذه الناحية فى علاقتها بفهم المقصود من معنى « الخطيئة » مع أنها — على ما نرى — لا تفهم حق فهمها ما لم تبتدىء من هذه البداية .

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من أقدم الأزمنة ، وعلقوا مصائر الناس وأقدارهم بسعودها ونحوسها ، فلا يسعد أحدهم بنعمة السماء ولا يشقى بغضبها إلا وهو فى الحالتين عرضة للقضاء المسطور فى أزياج النجوم .

وقد نشأ عندهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحبا لعلم التنجيم بخرافاته وأوهامه ، ولم تكن كل هذه الخرافات والأوهام خداعا من الكهان والسحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والألغاز التى يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها .

وما من قصة بلغتنا من أرض بلبل فى تاريخها القديم إلا وهى قصة من قصص المناظرة بين الأرض والنجوم فى شكل من الأشكال التى يفتن فيها الحس والخيال .

فربة الأرض « تيامات » تتحدى السماء فتستعين بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به إلى مناجزة الأرباب فى سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الأساطير المزعومة فانما هى فى مدلولها خروج من الأرض على إرادة السماء لا تلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان .

فلم يكن للبابلى من هم فى سره وعلانيته إلا أن يستطلع إرادة النجوم ويخرج بالإذعان لها وموافقة هواها من عداد « المنحوسين » إلى عـــداد السعداء .

ويســـأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لى فى كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الخيبة والضياع .

لم يكن الأمر هنا أمر الحسن والقبيح أو أمر الصلاح والفساد أو أمر الاستقامة والإجرام ، كلا . . . وإنما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب أو أمر الغضب الذى يحيق بمن يخالف قضاء الكواكب فى مجراه .

والفارق بين الأمرين إنما هو الفارق بين الموفق السعيد والخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء .

* * *

وينبغى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه يباينها فى طبيعته ولا يتأتى للإنسان أن يعرف موضع التحريم منه إلا إذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب أو الرذائل أو الجرائم بهذه الصفة الخاصة بين المحرمات . لأن الإنسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه .

فالذنب إساءة قد يجنيها الإنسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة إنصاف أو إجحاف فى المعاملة .

والعيب نقص يعترى الإنسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور .

والرذيلة إسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذى يروض نفسه على الكمال ، فهى مسألة كرامة وابتذال .

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على إنكاره ومجازاة فاعله ، فهى مسألة قانون وقضاء .

أما الخلاف الذى يسمى « خطيئة » فيكفى فيه أن يعمل الإنسان ما لم يرده الإله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه ، لأن الخلاف قلة إيمان بالمشيئة الإلهية : فهو مسألة أدب أو سوء أدب مع الله .

ولفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه فى علم السحر والكهانة تقربه من الأذهان على نحو سائغ فى كل تعليم . فليس من أدب التلميذ الذى يتلقى خفايا السحر والتنجيم أن يجترىء على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم إلى حين ، وعليه أن يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوما متعجلا أو مستريباً فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الأسرار .

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها انها تحريم يناظر بمشيئة الله ولا يطلب من العباد أن يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وإن خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها .

وقد أورد برتشار [١] فى كتابه عن شعائر الشرق الأدنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن أصحابها التوبة ويطلبون الغفران لأنهم أكلوا طعاما محرما ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجتراء على مغبة العقاب .

وقد نزيد المسألة توضيحاً حين نقول إن الإله وحده هو الذى يحق له أن يحرم شيئاً ولا يذكر سبب تحريمه ، لأنه هو وحده الذى يعلم مصلحة الخلق جميعاً فيما يبيحه لهم وينهاهم عنه ، فأما غير الإله فالمحرمات التى ينهى عنها لغير سبب لا تدين أحداً بالخطيئة وكل ما يخشاه من اتيانها أن يتعرض للغضب أو للعقاب .

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لأنها تقدمتها فى كشف الطوالع ورصد الكواكب وتفسير ما تنبىء عنه من سعود أو نحوس ، وتستحيل السعود والنحوس إلى مباحات ومحظورات ومحللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب أربابا علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير .

أما الحصة التى ساهمت بها عقيدة فارس فى تاريخ الأديان ، وتاريخ

---

(١) Ancient Near Eastern Texts by Pritchard

قوة الشر على التخصيص ، فهى « الثنوية » أو تنازع النور والظلام على سيادة الوجود .

ويظهر أن الثنوية هذه عريقة الأصل عميقة الجذور فى البقاع الفارسية وما حولها ، فانها بعد تهذيب الأديان الكتابية لها لم تزل متغلغلة فى أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون إلى اليهودية أو الإسلام ويقيمون فى أطراف البلاد التى كانت تحيط بها حضارة ما بين النهرين منذ أربعين قرناً أو تزيد ، وقد روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة إلى بخارى (من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٤٥) أن شيخاً يهودياً يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله الدرويش ممتحناً : من خالق النار والماء ؟ . . قال الدكتور وولف : فلما أجبته أنه هو الله ، صاح بى قائلا : صه ! لا شىء من ذلك ، لأن النار والماء عنصران مهلكان ولا ينبغى لله أن يخلق المهلكات ، وعليك أن تعلم أن الكون يحكمه إلهان : أحدهما إله الملأ الأعلى وهو رب الخير الذى خلق نورا لا يحرق وخلق الوردة والبلبل ، وقد تصدى له إله العالم الأسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حرباً لا تزال حتى اليوم حامية الأوار ، فمن عمل خيراً من الناس فهم خدام الإله الأعلى ، ومن عمل شراً منهم فهم خدام الإله الأسفل ، وسوف تحتدم الحرب كرة أخرى فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة تحلق معه ألوف الألوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سجالا حتى ينهزم الإله الأسفل ويلقى عصا الطاعة لإله السماء .

وأغرب من بقاء هذه العقيدة فى موطن التنوية أنها بقيت بين الأوربيين إلى القرن السابع عشر وكانت لها نحل ومعابد ومن بلاد البلقان إلى العواصم الفرنسية فى الشمال والجنوب ، وإذا صحت بعض الأخبار — مما نشير إليه فى الفصول التالية — فقد بقيت شعبة منها إلى القرن العشرين تتستر باسم الماسونية وتستقبل المصلين فى باريس حيث يقربون القرابين إلى الشيطان ويكررون التلاوات التى كانت ترتل فى معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة

قرون وتدور خلاصتها على الإيمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها إله السماء ولا تسرى عليها أوامره ونواهيه .

وقد تطور الإيمان بالثنوية أو هو قد ترقى مع الزمن فى القرون الأولى كأنه جذر عريق لا يقتلع مرة واحده ولا يزال قابلا للنمو فى منبت بعد منبت من العبادات الحالية .

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه التنوية فآمنوا بإله واحد يسمونه « زروان » وقالوا بولدين له كانا فى رحم الغيب فوعد أكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال إله الظلام منهما على الخروج أولا لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه إنجازاً لوعده ، ولم يستطع الأب إلا أن يعد ابنه إله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة آلاف من السنين الكونية !

هذان الإلهان هما « أورمزد » و « أهرمان » أو الروح الطيب والروح الخبيث .

ومن عقائد بعض الثنوية أن الخلائق النافعة من صنع إله النور وأن الخلائق الضارة أو التى لا نفع فيها من صنع إله الظلام .

وبعض طوائف الثنوية يعتقدون أن الجسد كله شر ولكن الأرواح العلوية أرادت أن تحارب جنود الظلام فأنبأها الإله الأعظم أنها لا تقوى على حربها بغير أجساد كأجسادها ، فإن شاءت بقيت على صفائها ، وإن شاءت لبست أجساداً من المادة فكافحتها بسلاحها ، وهذه هى الأرواح العلوية التى بقى الأكثرون منهم على صفائهم ورانت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات .

ويعتقد فريق من الثنوية أن آدم من خلقة الشيطان ولكن الأرواح العلوية تعالج أن تصلحه وتقوم أوده وتستخلصه من وهده الطين بقبس

من النور تدسه له فى وجدانه فيأنف الحياة الأرضية ويتطلع ببصيرته إلى السماء .

وجاءت المانوية فانتشرت فى بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحية ونافستها أشد منافسة فى آسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا وأوربة ، فامتلأت معاهد الدينيين بالكلام عن الشيطان واستصوب أناس من آباء الكنيسة أن ينتزعوا شعائر عباد النور فجعلوا يوم الأحد يوم الأسبوع المختار لأنه كان مخصصاً لعبادة الشمس [1] وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلاد لأنه كان يوماً ينصرف إليه المسيحيون إلى سهرات الوثنيين لاعتقاد هؤلاء أنه اليوم الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لإله الظلمة ونصر لإله النور .

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون إلى أصول العقيدة الثنوية فحولوا أسطورة زروان الذى ولد له « أورمزد » إلى أسطورة كرونوس الذى ولد له زيوس رب الأرباب وسيد الملأ الأعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بين النهرين ، لأنه سابقة لا تنقطع عما تلاها من أطوار الإيمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التى نزهتها الأديان الكتابية بعد ذلك فى عقيدة الوحدانية ، ودونها القوة الكونية التى تمثل فيها الشر مخلوقاً متمرداً على الله .

* * *

وفى الوعى الدينى عوامل ذات بال لا تحسب من الفرائض والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التى تخامر النفس وتعمل عملها فى تقويم الأخلاق المصطبغة بصبغة الإيمان .

من هذه الخواطر التى تستكبر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة « الزردشتية » من أقدم عصورها ، أولها أن الشر « شلك » .

---

(١) ومن هنا بقى اسم Sunday بالانجليزية .

وأنه نبت فى الكون لأول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير ؟ والخاطر الآخر أن الشر كذب كما جاء فى قصة « يامة » التى تضمنت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص ، فقد دعاه اورمزد لحراسة الحق فاستعفاه لعظم الأمانة واشفاقه من العجز عنها ، فأرسله إلى الأرض وخوله ما سأله من الغلبة على الموت ، فامتلأت الأرض بالأحياء التى لا تفنى وامتلأت نفس « يامة » بالخيلاء فسولت له أن يناظر الإله بهذه العصمة وأن يكاذب نفسه بخيلائه ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية « يامة » على نفسه وعلى زمرته تسللت إلى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور .

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من أقدم العصـــور ، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلاها من طريق الأشكال والرموز التى يلم بها الحس قبل التفكير فيها .

اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون إلى تحرير موازينهم جميعاً قبل الاطمئنان إلى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون الأساسية التى قامت عليها حضارة اليونان .

وذلك بأنه سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الأصول وفى كثير من التفصيلات : تاريخ الأمة اليونانية الحقيقية وتاريخ الأمة اليونانية التى جعلها الأوربيون المحدثون عنواناً للفضائل الغربية فى مسائل العلم والفن والسياسة والأخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزايا .

وبلغ من رغبة الأوربيين فى ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم تنكر للمسيحية لأنها ثمرة شرقية ، وفريقاً منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الأول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الأناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الإنجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان .

وقد عمد الغرب إلى هذا الاستغلال التاريخى لتراث اليونان لأنه احتاج إليه لتدعيم السيادة والرجحان على أمم الشرق فى عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة إلى تحقير الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تخول المتقدمين من بنى آدم أمانة الإشراف على تعليم المتأخرين .

إن أمه اليونان الحقيقية غير هذه الأمة « المصنوعة » التى احتال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة

الغرور الذى يساور « الغربى » فى مقام المفاخرة وإن لم يكن من خدام الاستعمار .

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الأمة الحقيقية فضلا فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فما لا نزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لا يعلوه نصيب ولا حاجة بها معه إلى انتحال الدعوى واغتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة أجيال متعاقبة مع من أخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين ، وأنها تعد من شعرائها أمثال هومیروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس ورستوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الأول الذى تلاحق على مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يكن فيه أحد يضارعهم أو يقاربهم فى هذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن وأساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحياناً على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة .

حسب الأمة اليونانية هذا الفخـــار الذى يقره جميع المنصفين من المشرقيين والغربيين .

فأما أنها استأثرت بالقيم الإنسانية العليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها الغرض ولا يسلمها التاريخ ، فإذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول إلى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ استعباده فهى مناجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغى لها من التصحيح والتفنيد ، وأنها لينبغى لها أن تصحح وتفند لغرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الأثر السيىء الذى تعقبه فى نفوس أبناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقضى عليها بالمهانة ضربة لازم بحكم الخصائص الفطرية التى لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، فى زعم الزاعمين .

لقد حصروا فى طبيعة الغربى — من وراء اليونانى — كل قيمة إنسانية عالية فى مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه فى هذه الخصائص بالشرقى فخرج الغربى بمزية العقل الذى يطلب العلم للعلم ومزية الحكم الذى يقوم

على حقوق الشعب ومزية الخلق الذى تتقدم فيه الفضـــائل الاجتماعية على دواعى الأنانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقى من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة فلا يتلاقى طرفاه من أقصاه إلى أقصاه .

ونحن نصحح هذه المزاعم فى مناسباتها إنصافاً للحقيقة ومنعاً للضرر الذى يتخلف من آثارها وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يحب الشهرة بالتحدى والمنافرة ومن يحب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، وقديماً رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بنى آدم اعتزازاً بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أبيكم آدم
فتبينـــوا يـــا معشر الأشرار
النـــار عنصره وآدم طيـــنة
والطين لا يســـمو سمـــو النار

فليس للغربيين امتياز فطرى فى طلب المعرفة للمعرفة بغير نظر إلى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة فى قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون — مثلا — كواكب السماء وعرفوا أن الشعرى تظهر فى موضع معلوم عند وصول الفيضان إلى منف فاستخدموا الرصد بعد ذلك فى تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات فى الثقافة الغربية قد رصدوها مئات السنين حبـــا للمعرفة قبل أن يتبت لهم ذلك الموعد الذى انتفعوا به فى تنظيم الرى والزراعة (١) .

وإنما امتاز الأغريق بالبحوث الفسلفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية

(١) Mathematics in Western Culture by Morris Kline

أصلية فى طبيعة التركيب . . . ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشـأت وتطورت دون أن ينشـأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الأشياء وحقائق التكوين وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لهـا مقصور عليها لا يجوز الافتيات عليه وإلا كان المفتئت كالمعتدي على نظـام الدولة ومحراب العبـادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلا بعـد جيل وعصرا بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم وابتعدت شيئاً فشيئاً عن نطاق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات .

وقد حكم على سقراط بالموت وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه وهرب غيره من الفلاسفة من أثينا دون أن تكون فى بلادهم تلك الكهانات الراسخة التى طالت بها العهود فى البـلاد الشرقية « وحدث للأوربيين ما حدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة » (١) .

ودعوى الامتياز الفطرى بالحكم الحر أضعف من دعوى الامتياز الفطرى يطلب المعرفة حباً للمعرفة .

فالشائع على الألسـنة أن التقدم العقلى ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة الديمقراطية — أى الحكومة الشعبية — من كلمة ديموس بمعنى الشعب فى اللغة اليونانية القديمة .

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فان الحكم الذى سمى بالديمقراطى أو النيابى لأنه يجرى بالانتخاب لم يبتدىء فى أثينا حيث يتكلم الفلاسفة ويتذاكرون ، بل كان مبدأه فى « سبرطة » العملية التى تختار النظام لأنه

---

(١) راجع كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية .

أيسر تطبيقاً وأنفع عملا ، وتتبع هذه السنة فى اختيار كل خطة تنتظم بها الإجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع .

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها أخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التى تقيم بها القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التى تشترك فيها القبائل .

وقد كان الانتخاب فى أثينا القديمة مسألة « إجراءات » كما كان فى سبرطة من قبلها . ولم يحدث قط أن أحدا قال حق الانتخاب لأنه حق إنسانى تناط به التبعات والواجبات ، وإنما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت الدولة إلى الاستعانة بها فى القتال ، فلم تناله طائفة الملاحين مثلا إلا بعد ثبوت الحاجة اليهم فى الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس . ويصدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرناً ، فان عمال الصناعة نالوه بعد عمال الزراعة . لأن عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم فى معامل الذخيرة والسلاح ، وأقدر على المطالبة والإضراب . ولم تنل المرأة حق الانتخاب إلا بعد ثبوت الحاجة إليها فى تلك المعامل مع إلحاح الطلب على المجندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الأمريكيون إلى تطبيق هذا الحق فعلا إلا بعد الحرب العالمية الثانية التى اشتركوا فيها مقاتلين كما اشتركوا فيها صناعا للذخيرة والسلاح .

أما حكم الشورى الذى هو تكليف إنسانى منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ، فلم ينشأ فى اليونان ولا فى أمة غربية ، بل نشأ مع الإسلام فى الجزيرة العربية ولم تسبقه اليه ملة ولا دعوة فكرية .

ونأتى بعد بيان الحقيقة فى امتياز المعرفة وامتياز الحكم إلى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانها من الإله الأكبر أو من نظام الوجود .

ففى الحضارات الشرقية التى أجملنا القول فيها رأينا أن « قوة الشر »

مغضوب عليها لأنها تضر وتفسد وتدس الغواية على الإنسان ، وخلاصة المقايير الأخلاقية هنا أن القيم الصالحة فى جانب الإله والقيم الفاسدة أو الخبيثة فى جانب « قوة الشر » أو الشيطان .

لكن الأمر ينقلب تماماً فى معايير الأرباب اليونانيين ، لأن « برومثيوس » الذى ينصب عليه غضب الأرباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذى هدى الإنسان إلى سر النار وألهمه السعى فى طلب البقاء وبصره بالمجهول من خفايا الكون الذى يعيش فيه ، وتمثله الأساطير على قسط وافر من الفطنة يغار منه رب الأرباب ويخيل اليه من أجل ذلك أنه يتعالم عليه .

أما رب الأرباب — زيوس — فهو أشبه ما يكون بالشيطان فى الديانات الشرقية القديمة ، وهو فى جميع صوره شهوان نهم أكول شديد الطمع لا يبالى شيئاً من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزانته ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولاب » أبى الطب لأنه يشفى المرضى فلا يموتون ويخسر بلوطس فى العالم الأسفل ضرائب نقلهم إلى الهاوية السوداء .

وتمتلىء الأســاطير اليونانية بأنباء الشجار بين رب الأرباب هذا وقرينته « هيرا » التى كانت تفاجئه فى خياناته الغرامية مع نساء الآلهة وبنى الإنسان ، وربما عنفته فى بعض هذه المشاجرات لأنه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسى » فيهبط إلى الأرض ليخطف منها الغلام الجميل « جانيميد » ويجعله ساقياً فى الملأ الأعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين .

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا فى أساطيره الكثيرة نموذجاً للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات الخدع والخوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وإن رضى فانما يرضى لخدمة أو وساطة فى طعام أو غرام ، وهذه إحدى المحاورات بينه وبين برومثيوس كما تمثلها لوسيان الساموسى أديب الأساطير المشهور .

— أطلقنى يا زيوس . حسبى ما قاسيت .

— أطلقك ؟ أطلقك أنت ؟ كيف . انك لأولى أن يزاد عليك ثقل

الأغلال وأن تنطبق عليك جبال القوقاز جميعاً وأن ينهش من كبدك أثنا عشر عقابا بدلا من هذا العقاب الواحد ، فانك أنت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترىء على مناوأتنا ، وأنت الذى اختلست سر النار ، وأنت الذى سويت المرأة ، وما بى من حاجة أن أذكرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة وغطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى ، فذق إذن جزاءك فانك به لجدير .

— وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبى ؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الأثيم .

— انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق .

— تأمل . اننى لا أطلب منك الإفراج عنى سماحة بغير عوض ، وإنما أهب لك سرا من الأسرار الغالية التى تعنيك .

— آه . إنها إذن لحيلة من حيل برومثيوس .

— حيلة من حيلى ؟ . . ولأى غرض ؟ إن جبل القفقاز موجود ، وانك لقادر على الرجعة بى اليه أن كذبت عليك .

— قل لى أولا فى أى شىء تكون هذه النصيحة الغالية .

— إذا أنبأتك حقا بشىء عن هذه النصيحة ألا تعلم منها أيضاً أننى أحسن النبوءة عن الغيب ؟

— بكل يقين .

— إنك على موعد زيارة لثيتس .

— إلى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . اننى الآن أصغى إليك .

— لا تضاجعها يا زيوس . فان بنت نيريس لا تلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلا يبتليك بما تبتلينى به الآن .

— تعنى أننى أفقد عرشى ؟

— أعيذك من القضاء ، وإنما أنبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء .

— إذن وداعاً يا ثيتس . وأنت يا برومثيوس سيأتيك هيفستس بالفرج القريب .

ورواية لوسيان لأخبار برومثيوس مع رب الأرباب تطابق رواية « هزيون » الذى تولى تنقية الأساطير وحاول أن يعرض زيوس فى معرض التقديس والتنزيه ، فلم يترفع به عن وصمة التهم الذى يغضب لأكلة ولا عن تهمة الغيرة من ذوى الفطنة والحيلة بل ألقى اللوم على المغضوب عليهم لأنهم استحقوا الغضب بالتعالم عليه ، وحكى وهو يبسط القول فى أوائل خالق الكون قصته التالية :

« . . . وولدت كليمين بنت الأوقيانوس ولدا أصمع القلب هو الأطلس ، وكذلك ولدت منوتيوس المجيد وبرومثيوس اللبيب صاحب الحيل والأساليب ، وابيمثيوس الذى كان من مبدأ أمره شرا على الناس الذين يأكلون الخبز لأنه هو الذى أخذ من زيوس المرأة التى خلقها ، وكان منوتيوس ثائرا مثيرا فرأى زيوس بثاقب نظره أن يرجمه بصاعقة هبطت به إلى اريوس لادعائه وإمعانه فى كبريائه . . . وقضى على برومثيوس ذى البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقيود قاسية لا ترحمه وأن يطعن أحشاءه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر الطويل الجناحين فيلتهمها بالنهار ويتركها فى سواد الليل تعود سوية كما كانت ليعاود تمزيقها فى الصباح ، وقد جاء هرقليس فقتل هذا النسر وأنقذ برومثيوس من عذابه . . . ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صاحب العرش الرفيع فى الأولمب وإنما أراد نباهة الشأن لابنه هرقليس . . . فنظر بعين الرضى إلى فعلته وإن يكن غاضباً من برومثيوس لأنه تسامى إلى مناظرة الإله الأكبر فى الذكاء . . . وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم الأرباب والنسر وذبح برومثيوس توراً عظيما ليطعمهم منه ، فسولت له نفسه أن يخدع زيوس وأن يضع اللحم الجزل أمام غيره ويضع أمامه عظماً مكسوا بالشحم يلمع عليه ويخفى ما تحته بلباقته وخبثه ، فلم يلبث زيوس أن

صاح به : يا ابن يابيتس سيد السادة ، ما أشد إجحافك — سيدى — فى قسمتك !

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤنبه ، فلم ينس بروميثيوس مكره وراح يجيبه فى ابتسام وصوت خفيض : خذ من هذه الأنصبة جميعاً ما ترضاه ، وظن أنه يحتال على الإله الأكبر بهذه الخديعة ، ولكن الإله الأكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأضمر فى قلبه شراً لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الأبيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سخطاً كلما رأى العظم الأبيض مدسوساً فى خبث واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الأبيض على المذابح المعطرة قرباناً للأرباب الخالدين . ويزمجر مرسل الغمام بصواعقه محنقاً إذ يقول لبروميثيوس :

يا بن يا بيتس . يا بارعاً فوق البارعين . كأنك يا سيدى لم تنس بعد أساليبك فى المكر والخداع !

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى غضبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار إلى الخلائق البشرية الهالكة التى تعيش على الأرض . إلا أن بروميثيوس النسيب الحسيب غلبه دهاء واختلس قبسا من النار فى جوف قصبته وأحس زيوس مرسل الصواعق فى العلا بلذعة فى فؤاده حين لمح النار بين أبناء البشر . . . » .

ثم مضى هزيود يروى قصة المرأة التى خلقها زيوس شرا للبشر وجعل اجتنابها فى الوقت نفسه سرا يورث العقم وجاء بروميثيوس فأغرى الإنسان بالنسل مستهيناً بشر الفتنة حذراً من شر الفناء .

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الأسطورة التى تحيط بمأساة البشر بين القوة الإلهية التى تحبهم والقوة الكبرى التى تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جرب الشعراء أخيلتهم فى نظم هذه الأسطورة وإبداعها كل ما تتسع له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر

المحيط بالإنسان بين السماوات والأرضين ، وقد تناولها فى العصر القديم شاعر من أكبر شعراء اليونان وتناولها فى العصر الحديث شاعر من أكبر شعراء الإنجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « شلى » قصيدته بعنوان بروميثيوس الطليق ، وكلاهما قد وضع بروميثيوس وزيوس فى مكانيهما من الإنصاف والإجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل الشاعر اليونانى زبانية زيوس نفسه يرثون لبروميثيوس الذى قضى عليه — لعطفه على أبناء البشر — أن يوثق إلى صخرة نائية لا يراها أحد منهم ولا يسمعه منها أولئك الذين قد شقى فى سبيلهم فيجزيه عطفاً بعطف وإحساناً باحسان ، وجعل الشاعر الحديث رب الأرباب كالمارد العربيد أسكره النصر فقام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ونعى لهم صديق البشر الذين يرفعون اليه قرابينهم على كره منهم وفى قلوبهم غصة وعلى ألسنتهم نفاق .

ويقرأ المثقفون من الغربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين ما يوحيه من القيم الأخلاقية فى تصوير أصول الخير والشر وبين دعوى الامتياز الأوربى على أمم الشرق فى تصويرهم لهذه الأصول ، وليس فى وسعهم أن ينكروا دلالة الأساطير الكونية على معايير الأخلاق وبواطن الشعور ، وليس فى وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر فى رواية تلك الأساطير ، ونحسب أن السهو عن بيان هذه المفارقات فى كتاب يوضع عن « الشيطان » يخل بأمانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين ، ولكن الكاتب الشرقى — من أبناء هذا العصر خاصة — يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو فى هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الأباطيل التى تتجاوز الخطأ إلى الضرر بالنفوس .

* * *

ويبدو أن اليونان المتأخرين — قبل عصر المسيحية — قد استعاروا من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة أو أصل الخطايا الشيطانية جميعاً فردوها إلى الكبرياء وأطلقوا على هذه الخلة إسم الهوبرى **Hubris** وهى كلمة قريبة من دلالات الرجس فى إصلاح الدينيين .

ولكن الكلام فى الكبرياء لا يغنى عن تعقيب ينفى عن الكبرياء محاسنها ولا يبقى لها غير عيوبها التى ينكرها الذين كما ينكرها معيار الأخلاق .

فالكبرياء على الإله الكامل العظيم فى صفاته وآلائه كفران لا شك فيه وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما الكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء فى سبيل أكلة من اللحم والشحم، فليس فيها من معنى الخطيئة كثيراً ولا قليل ، وليس فى استعارتها لهذا المعنى دليل على معيار صادق للحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع فى غير موضعه ومغزاه .

فى طريق الأديان الكتابية

قبل أن ننتقل إلى عقائد أهل الكتاب فى قوة الشر العالمية نتريث هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عبرها الإنسان فى هذا الطريق ، من خطواته الأولى حيث لا تمييز بين خير وشر ولا بين إله وشيطان ، إلى غايته القصوى فى حضارات الأمم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة ، وهى أول الأديان الكتابية فى التاريخ .

آمن الإنسان بالأرواح والأطياف من أول عهده بالدين فى الهمجية الأولى ، وآمن بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينهما معنى فى مقياس الأخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الأنيس والحيوان الضارى ، أو بين الحشرة المأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين أحدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الأرواح أو طيف من الأطياف كلما ارتجى نفعه واتقى أذاه .

وخطا فى طريق التدين خطوة أخرى حين قسم الأرواح والأطياف إلى طيب وخبيث واحتاج إلى الكاهن والساحر ليروض له الخبيث بالرقى والتعاويذ ويجزى عنه الطيب بالدعوات والقرابين ، وعمل التخصص عمله البطىء فانفصل دور الدعاء ودور السحر وإن عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور الراعى ودور الصياد وإن كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يفتك بالأناس والماشية .

ثم خطا الإنسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعة والمضرة وبين المنفعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التى تصدر على الدوام من طبع خبيث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذى يضمر السوء ويتوارى عن النظر — أقرب إلى الحس والخيال من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم

شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا إلى أحدث العصور .

وعاش الإنسان عصورا مديدة يعمل الأعمال أو يتركها لأنها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العاقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لأنها واجبة مطلوبة أو لأنها محرمة محظورة كانت هذه خطوته الأولى فى طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر فى أضيق الحدود .

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل فى أمة ذات مجتمع واحد وشريعة واحدة ، فعممت نظرته إلى الشر والخير ولم تزل تتسع فى عمومها حتى برزت فى ذهنه فكرة « النوع الإنسانى » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جدا فى مغازيها وثمراتها وهى فكرة الإنسان عن ضمير الإنسان ، ولم يكن فى وسع أن يقل شيئا عن « الضمير الإنسانى » قبل أن يعرف أن الإنسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والأقوام .

وكانت الحضارات الأولى خطوة بل خطوات واسعة فى هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحيانا ولا تتقابل دائما فى الاتجاه إلى معنى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشرورا قبل أن تجتمع فى خير واحد بمقياس واحد أو فى شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بنى الإنسان .

كانت مسألة العالم مسألة دولة وشريعة ونظام فى عرف الحضارة المصرية الأولى ، فالخير شريعة تستتب عليها الأمور والشر مروق من تلك الشريعة واخلال بالنظام الذى استتب عليه .

وكانت المسألة مسألة كونية فى عرف الحضارة الهندية الأولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا خير فى غير الأعراض عنه والنفاذ إلى ما وراءه ، ولعل المجاز هنا قد فعل فعله فى المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الجواهر فنا قديما فى حضارة اللآلىء والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور وما عداها أو ما دونها من الحلى الزائف والحلى البذول ، وكلها كثيرة قديمة فى بلاد الهنود .

وكانت المسألة مسألة فلكية فى حضارة « بين النهرين » بفرعيها من فارس وبابل .

فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما فى الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هى خلاصة الديانات الثنوية فى مختلف المذاهب والتأويلات .

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل فى تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية فى الصميم ، لأن الخير والشر فيها مقسومان بين السعود والنحوس كما سطرت فى أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات .

أما الحضارة اليونانية الأولى فالخير فيها مسألة حظ والشر فيها مسألة اعتراض الملك الحظ الذى لا حيلة فيه للمحظوظ ولا المعترض عليه .

فلم يكن « زيوس » رب الأرباب لأنه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها خلقا أو أشرف منها مقصدا ، إذ أنه فى الواقع أقل من الأكثرين بين الأرباب فى جميع هذه الخصال ، وإنما « الحظ » وحده هو الذى يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضا من الأعراض أو مصادفة من المصادفات فى الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الأساطير البدائية التى لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التى وضعها نوابغ الشعراء ومثلوا فيها مصائر الأبطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لذى حسنة أو ذى سيئة من المتفائلين أو المتشائمين ، وإذا لخص النزاع بين زيوس ، وبروميثيوس فى قصة مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب ، ولعل فلاسفة اليونان لم يجتهدوا اجتهادهم فى كلامهم على السبب والمصادفة — أو البخت كما ترجمه الفارابى — إلا لأنهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة فى طريق كل تفكير ، وكان إيمان العظماء به قد بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم على خطة من خطط السلم أو غزوة من

غزوات الحرب إلا بعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه .

* * *

على أننا — فى هذه العجالة — فى مقام الحد الفاصل بين الحضارات الأولى والأديان الكتابية من وجهة النظر إلى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الإلهية التى آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الإنسانى » وما تلاها من فكرة أرفع منها وأشرف وهى فكرته عن « ضمير الإنسان » .

ونحسب أن الحد الفاصل إنما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الإله الأكبر ، وهما صفة السيادة والسلطان وصفة الخلق والتكوين .

فالأقدمون قد آمنوا بخلق الله للأكوان ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلهم كانوا منساقين فى ذلك مع عقائد الفطريين الأسبقين الذين كانوا يؤمنون بأرواح لم ينسبوا إليها خلق شىء من الأشياء فضلا عن خلق الكون الذى يحترى جميع الأشياء . ثم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط إلى عبادة الإله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان .

أما الديانة الكتابية فقد أبرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الإلهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير .

ويأتى من هذا الفارق شىء كثير .

يأتى منه أن الشر فى الحالة الأولى إنما يحسب من قبيل الحماقة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه أنه يليق أو لا يليق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم .

وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبره الأمم الإنسانية طفرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى فى عقائد الأديان الكتابية مما قبل التوراة إلى ما بعد الإسلام .

الأديان الكتابية

(أ) العبرية

نسميها العبرية لأننا لا نعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها فى بلاد بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية .

فلا يصدق عليها اسم « اليهودية » لأن النسبة إلى يهوذا حدثت بعد موسى عليه السلام .

ولا يصدق عليها اسم « الموسوية » لأن موسى قام بالدعوة بعد يعقوب واسحاق وابراهيم عليهم السلام .

ولا يصدق عليها اسم « الإسرائيلية » لأن الإسرائيلية تنسب إلى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم أجمعين يلقب بالعبرى فى بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التى دانت بها العشائر التى نشأ فيها ابراهيم أصدق من كل اسم آخر فى الإحاطة بديانة القوم من أوائل تاريخها وفى جميع أطوارها المعلومة إلى أن عرفت أخيرا باسم ديانة التوراة .

وينبغى أن نميز العبرية فى نشأتها الأولى من ديانة التوراة كما تلقاها المسيحيون الأوائل وكما انتهت إلينا مهذبة فى القرآن الكريم .

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الأولى وعقائد التوحيد من قبل ظهورها إلى ما قبل المسيحية بنحو مائتى سنة ، فلم تستقم على عقيدة الإله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية إلا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد .

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة إنسانية عامة تتساوى فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة بضمير الإنسان غير منظور فيه

إلى عنصر أو نسب ، وإنما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم معلومين .

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الإلهي إلى الأفق الذى ارتفع إليه آخر الأديان الكتابية وهو الإسلام .

بل كان العبريون الأوائل ينكصون حيناً بعد حين إلى شعائر الأوثان والأصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الأرباب لرب ابراهيم فلا يعودون إلى الوحدانية — أو ما يشبه الوحدانية — إلا بعد تقرير الدعوة من جديد .

ولبثوا زمانا يصفون الإله بالصفات التى لصقت به فى الوثنية أو فى ديانات الحضارات الأولى ، فكان الإله عندهم يغار من الجنس البشرى ويشفق من يوم يهتدى فيه إلى شجرة الخلود ويتوعده بالموت إن أكل منها فيقيم الملائكة الأشداء حرساً حولها كما روى عن الأرباب البابليين فى حواشى قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام أنهم يتهمون يهوا بالكيد لهم ونصب الفخاخ فى البرية للتغرير بهم ، وأنه لم يستدرجهم إلى سيناء إلا لأنه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيداً من أرض وادى النيل التى أخرجهم منها .

وكانت فكرة السيادة فى عبادتهم للإله غالبة على فكرة الخلق كما كانت غالبة على أديان الحضارات الأولى ، فلم ينكروا وجود الأرباب التى تدين بها العشائر الأخرى ، ولكنهم أنكروا سيادتها ودانوا بالولاء للإله « يهوا » وحده كما يدين الشعب لملكه وهو يعلم بملوك غيره لا يجب عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة إذا أشرك بينهم وبين ملكه فى فرائض الولاء .

ويتضح من مقارنات الأديان أن العقيدة تعزل قوة الشر وتحصرها فى « الشخصية الشيطانية » كلما تقدمت فى تنزيه الإله واستنكرت أن يصدر منه الشر الذى يصدر من الشيطان .

ولهذا لم يشعر العبريون الأوائل بما يدعوهم إلى عزل الشيطان أو إسناد

الشرور إليه . لأنهم كانوا يتوقعون من الإله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة إلى الشيطان وتارة إلى الإله كما حدث فى قصة إحصاء الشعب على عهد داود ، فانه فى المرة التى ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل إنه هو الذى أغرى داود باحصاء الشعب كما جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الأيام الأول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها فى سفر صموئيل الثانى فيقولون إنه « حمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا . . . » . .

ولم يكن الشيطان هو الذى أغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هى صاحبة الغواية هنا جريا على سنن الأقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسى وبين الخطيئة الأخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز إلى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز .

ولم يذكر الشيطان قط فى كتاب من الكتب قبل عصر المنفى إلى أرض بابل سنة (٥٨٦ ق.م) . . ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية ، فجاء مرة بمعنى الخصم فى القضية وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم فى الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذى تصدى لبلعام فى طريقه ، لأنه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم إلا حيث قيل فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الأيام أنه « وقف الشيطان ضد إسرائيل » .

وقد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوى بين الإله وبين عزازيل رب القفار أو الجنى الذى يهيمن على الصحراء ، وكان إيمانهم بوجود الأرباب الأخرى التى يعبدها غيرهم من الأمم بديلا من صور الشياطين ، لأنها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » إلى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وإنما تأتى النقمة إذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الأرباب الأجنبيين ، البدلاء من الشياطين .

وقد تمثل الشيطان فى صورة الواشى الموغر للصدور فى قصة أيوب عليه السلام ، ولم يكن منعزلا عن الملائكة بل دخل معهم إلى الحضرة الإلهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء فى الإصحاح الأول من سفر أيوب : « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها ، فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ إنه ليس مثله فى الأرض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس انك حميته بحياطتك أياه وحياطة بيته وكل ما يملك من ناحية ؟ . . باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض . . » .

ثم تبتدىء المحنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان .

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح والمؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر فى الأدب العربى إن لم تكن هى القصة بعينها منقولة فى رواية أخرى ، ونعنى بها القصة التى أشار اليها امرؤ القيس حيث يقول فى معلقته :

وواد كجوف العير قفر قطعته

به الذئب يعوى كالخليع المعيـــل

فان الجوف بلغة اليمن هو الوادى وكلمة العير فى هذا البيت بديل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار فى وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار ابن مويلع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وزرع وضرع فنزلت على أبنائه صاعقة فى بعض أسفارهم أحرقتهم وما معهم فكفر الرجل بالله وقال لا أعبد ربا أحرق بنى ، ثم عكف على عبادة الأصنام فأرسل الله على واديه ناراً أتت عليه وجعلته مضرب المثل فى الخراب فيقال على هذه الرواية أخلى من جوف حمار .

وأيا كان القول فى هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة

أيوب إلى العرب ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة الشر والغواية فى « شخصية الشيطان » . . وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التى لم يميزها العبريون لأنهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الإله الذى يعبدونه أو تعبده الأقوام الأخرى عن قبائح الشيطان .

* * *

وقد نبهنا إلى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الأوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة إلى تحريرها فى صدد المأثورات العبرية بأقل من الحاجة إليه فى صدد المأثورات اليونانية ، لأن الأوربيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهد القديم على اعتباره كتابا من كتب المسيحية التى يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها وينظر اليه بعضهم كأنه تراث أدبى موصول بتراث الدين .

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وأنها أسبق الديانات الكتابية فى التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والإسلام إلى أصول العقائد والشعائر فى جميع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دانوا به ولم يعيروا المسيحية والإسلام شيئاً غير ما جاء من تطور الأفكار ولم يكن مجيئه على يديهم فى أكثر الأحيان .

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الأنبياء العبريين فى أهم الأصول الدينية وهى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب . ففى سفر أيوب قبل جميع الأسفار التوراتية ظهرت هذه الأصول ، وقد تتابعت النبوءات فى بلاد العرب قبل أن يكون للنبوة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الأنبياء العرب هودا وصالحا وشعيباً وذا الكفل . وجاء فى التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب ، وجاء فيها أيضاً أن شعيباً علم موسى وهداه إلى سياسة قومه وأن بلعام كان حكما بين اسرائيل وخصومها فى جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبى « ارميا » يتبين أن المجهول من أخبار الأنبياء فى بلاد

العرب كان أكثر من المعلوم المذكور فى كتب العهد القديم ، لأنه يستغيث متسائلا عن هداية الجنوب : وينادى : أما من حكمة بعد فى تيمان ؟

وإنما تضخمت مأثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم فى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب ، ولابد أن يذكر على الدوام أن هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف اليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفى هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبريون من مجاورة الأمم التى تقدمتهم فى إدراك الصفات الإلهية والصفات الشيطانية ، ومن هذه الكتب أخذ الآخذون ما حسبوه تراثاً اسرائيلياً وهو فى حقيقته تراث الحضارات الغابرة من أقدم العصور .

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الأصالة والنقل فى القصص الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فانهم ظلوا إلى ما بعد الإسلام ينقلون عن العرب قصصاً كان موطنها فى أرض بابل وآشور كقصة هاروت وماروت ، وأحق ما يكون بالتنبيه فى هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا إليها أيام السبى قبل الميلاد بستة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة إلا بصيغتها العربية بعد عصر السبى بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط القدم فى الديانة الكتابية أن يكون القوم معبرين وأنهم لا يستعيرون.

ويدل تأخر المصادر التى فصلت أوصاف الشيطان على تأخر القوم فى التمييز بين الخير والشر كما ميز بينها أبناء الحضارات التى تقدمت الإشارة إليها ، ففى الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عن العداوة الشيطانية للإنسان وعن أثر هذه العداوة فى خروج آدم من النعيم وفيها ارتقاء من وسوسة الحية إلى وسوسة شمائيل رئيس الملائكة الذى عمل فى القصة مع إبليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالى القرن الثانى قبيل الميلاد فى الكلام على « مشطيم » اسم الفاعل من مادة شط فى اللغة العربية يقابله كلمة « شيطن » فى اشتقاق اللغة العربية ، وتحتوى التلموديات فى مثل هذا العصر كلاما عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل فى العربية « بلاعول » .

أى لا معول عليه ولا أخلاق له ولا خير فيه . . ويحتوى كتاب أخنوخ قرابة هذا الوقت كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة أن الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان . وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكرون الشياطين بأسمائها البابلية كما ذكروا « الشعريم » أى الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أى الشياطين الليلية والكتيب والدبير[١] وغيرها من الجنة والعفاريت التى اقتبسوها بمدلولها أو فاتهم مدلولها فنقلوها بأسمائها ونعوتها .

* * *

ونعود فنقول إن الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورة الشيطان فى عقائدها هى أوفق مقياس لسلم التطور الذى ارتقت عليه من أقدم عهودها فى التاريخ إلى العهد الذى ظهرت فيه المسيحية .

ففى أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الأرضية من إنسانية وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق وخلائق الشيطان .

فكان الشيطان يحضر بين يدى الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون إلى الأرض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الإله نفسه يمشى فى ظل الحديقة مبتردا ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم كما يفعل كل مخلوق من مخلوقاته فى الأرض أو فى السماء .

وتطورت عقائدهم فى الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة فى أساطير الوثنيين الأقدمين ، فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للأنهار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور والوهاد وآخرون للأسماك والحيتان ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل فى طاعة

---

(١) أهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذه الأسطر كتاب (الشيطان) صورة لمؤلفه ادوارد لانجتون Edward Langton

شيطان ويتنقل بين الأعمال السماوية وأعمال الأرض والهاوية كأنها نمط واحد من الأعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة .

وتروى « الزوهار » أن الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لأول مرة ملء السماوات والأرضين فتساءلوا مستنكرين : أفى الكون إلهان ؟ فصعره الله وجبل له جسما من التراب .

وفى ميثاق أخنوخ أن الملاك شمهازى قاد رهطا من الملائكة إلى الأرض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعاله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لأنهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا باهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان .

ويروى عن أخنوخ أنه هو الذى عزر الملائكة المتمرسين بشهوات الأرض وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الأرض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون (١) .

ومن علماء الأساطير العبرية — مثل ابشتين وجرنبوم — من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الإسلامية ، وأن سعديا وابن سابا نقلا أسباب سقوط إبليس عن هذه المصادر ومعها كثير من الأوصاف والفعال التى يتميز بها الشياطين .

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهان الديانات البابلية والمجوسية ويسمعون منهم أوصاف أهريمان إله الظلام وجنوده فينقلونها إلى الشيطان ويضعون هذا الشيطان شيئا فشيئا فى موضع العدو المناجز لله والإنسان ومما اقتبسوه من أولئك الكهان — من الفصل الثالث فى كتاب البنداهش Bundahesh — أن أهرمان تشكل بشكل الحية وملأ آفاق الفلك الأعلى

---

(١) تراجع فى كل هذه العقائد مجلدات الأساطير اليهودية جمع جنجيبرج
The Legends of the Jews, by Gingburg

والأرضين حتى لم يبق فيها منفذ لإبرة ونفث سمومه فامتلأت بها الآفاق. وسرت فى كل شىء بين الأرض والسماء ولم ينهزم حتى هبط إله الخير « أورمزد » إلى الأرض فرده إلى قراره .

ولوحظ فى المقارنات بين العقائد أن اختصاص الشيطان بخلائقه التى تنافر الأخلاق العليا إنما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم، ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وأن أنبياءهم الذين أكدوا لهم، عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعا قبل القرون الثلاثة الأخيرة التى سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بخلائقه المنافرة للخير « عقيدة رسمية » يقرها الرؤساء المسؤلون ولكنه كان من قبيل التراث، المحفوظ الذى تعرف مصادره حينا وينقل من رواته فى البيئة التى يشيع فيها بغير مصدر معلوم .

فلما تلاقت العبرية والمسيحية فى الزمن كانت صورة الشيطان على، ما انتهت إليه يومئذ ميراثا مشاعا لا يستند فيه اليهود إلى نسختهم من التوراة ولا أسانيدهم « الرسمية » ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد على غير ملتهم أن يقبلها ، لأنهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا إلى نبى، من أنبيائهم المعدودين .



الأديان الكتابية

(ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الأناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المتحدثين إليه على اختلاف المعتقد والنية .

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم واسم بعلزبول ، وقيل عن بعلزبول بلسان الفريسيين أنه رئيس الشياطين .

وتذكر الأناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة أنهم صرعى الشياطين وترد كلمة الشيطان فى الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانية التى تطلق على ابليس Diabolos أو مقابلة للكلمة التى تطلق على العفريت والروح المتسلط Demon سـواء كان شريرا أو غير شرير .

وفى أحد الأخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها أنها « كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة ، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : يا امرأة ! انك محلولة من ضعفك .. » الاصحاح الثالث عشر من أنجيل لوقا .

وبصدد المخبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد المسيح قال الفريسيون أنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هذه القصة بصيغ مختلفة فى الأناجيل ورواها أنجيل متى فقال إنه « أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الأعمى الأخرس وأبصر . فبهت كل الجموع وقالوا : ألعل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يخرج الشياطين إلا

ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت . فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون ؟ لذلك هم يكونون قضاتكم . ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله » .

وموضع الالتفات فى كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين مملكة بعلزبول وملكوت الله ، وأن السلطان الذى لا يكون بقوة الشيطان إنما يكون بروح الله .

وأصرح من ذلك فى الإشارة إلى سلطان إبليس على العالم قصة التجارب التى امتحن بها السيد المسيح فى البرية ، وكان إبليس هو الذى يجربه ويحاول إغواءه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفى انجيل لوقا هذه القصة إذ يقول إن يسوع « رجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس ، وكان يقاد بالروح فى البرية أربعين يوماً يجربه إبليس ، ولم يأكل شيئاً فى تلك الأيام فلما تمت جاع أخيراً وقال له إبليس : إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله . ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له إبليس لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلى قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد . فإن سجدت أمامى يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : الاهب يا شيطان ! انه مكتوب للرب الهك تسجد وإياه وحده تعبد ، ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم رجلك بحجر ، فأجاب يسوع وقال له : إنه قيل لا تجرب الرب الهك . فلما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين ..»..

وهذه القصة أوفى ما جاء فى الأناجيل عن سلطان إبليس على ممالك العالم وأنها دفعت إليه ليعطى منها ما يشاء لمن يشـــاء ، فهو قريب من صورة أهريمان إله الظلام فى ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك إلا ما يدفع إليه بمشيئة الإله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة فى الديانات الكتابية بين إله الظلام وأمير الظلام كما سمى إبليس بعد عهد السيد المسيح .

وآخرة إبليس كما جاء فى كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الإلهية ، ولا تصعد إلى المنزلة التى أنزل بها الفرس الأقدمون إله الظلام فى ديانتهم الثنوية ، وفى الإصحاح الخامس والعشرين من أنجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهى إليها الملائكة والقديسون وينتهى إليها الشياطين والأشرار : « ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركى أبى . . رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . . . ثم يقول للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته . . » .

ويقول السيد المسيح فيما رواه لوقا أن الشيطان يغربل تلاميذه . . . وقال الرب : « سمعان : هوذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة . . » الإصحاح الثانى والعشرون .

ويذكر أنجيل لوقا قبل ذلك أن الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه « دخل فى يهوذا الذى يدعى الاسخريوطى . . . فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند » ليسلم المسيح اليهم .

وينفرد أنجيل يوحنا بكلام منسوب إلى السيد المسيح يصف فيه إبليس بأنه رئيس هذا العالم ، وتكرر ذلك فى غير موضع فجاء فى الإصحاح الثانى عشر أن السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم : « الآن دينونة

هذا العالم . الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً ، وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع » .

وفى الإصحاح الرابع عشر يقول : « . . إن أبى أعظم منى ، وقلت لكم الآن قبل أن يكون . . . لا أتكلم معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتى وليس له فى شىء » .

وفى الإصحاح السادس عشر « الآن أنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا ترونني أيضاً ، وأما دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين » .

وفى إنجيل لوقا وردت الكلمة التى شبهت لقراء الأناجيل اسم الشيطان باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الأناجيل بعدة قرون ، ففى الإصحاح العاشر من إنجيل لوقا يقول السيد المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله : « إنى رأيت الشيطان ساقطاً كالبرق من السماء ».

أما غاية ما وصف به إبليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالة كارنثوس الثانية « إن كان أنجلينا مكتوماً فانما هو مكتوم فى الهالكين الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين » .

وإنما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى أمامه معابد « مترا » فى كل مكان يرحل إليه ، ويسمع أتباع مترا يذكرون إله الظلام وإله هذه الدنيا السفلى التى تخضع لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة مترا بالظفر والغلبة فى الدهر الموعود ، وقد أخذ العبريون تقسيم الدهر إلى دهرين من أقوال أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الأوائل أن يهونوا

من شرور إله الظلام فى هذه الدنيا ، بل كانوا يسبقون أتباع « مترا » إلى تعظيم الفارق بين النور الإلهى والظلمة الشيطانية ، وتسمية بولس للشيطان بإله هذا الدهر إنما هو من قبيل تحقير الدهر الذى يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين الأقدمين فى الزراية بأدعياء الربوبية عند الأمم الأخرى ، فكان من أساليبهم فى إنكار ربوبية بعل أن يسموه — على رأى الكثيرين من الشراح — رب الذباب ورب الزبالة ، ومن ثم اسم بعلزوب وبعلزبول .

وتمتزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على إلمامه بالأساليب اليونانية فى التعبيرات وسماعه بالآراء التى كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة فى معرض الطبيعيات ومرة فى معرض الدينيات ، ومن ذاك قوله عن إبليس فى رسالة أفسس « أنه رئيس سلطان الهواء الروح الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية » ومنه قوله فى تلك الرسالة « ألبسوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تثبتوا ضد مكان إبليس ، فإن مصارعتنا ليست مع لحم ودم . . بل مع أحفاد الشر الروحية فى السماوات » .

ويرى اللاهوتيون المحدثون أن أقوال بولس هنا تحتمل الإشارة إلى الطبيعيات اليونانية كما تحتمل الإشارة إلى التراث العبرى فى مسائل الروحانيات قال الدكتور هوجو راهنر Hugo Rahner فى بحثه عن الروح الأرضى والروح الإلهى فى علم اللاهوت القديم : « إن عبارة رئيس سلطان الهواء فى كلام بولس الرسول تثير أسئلة شتى فى التاريخ الدينى ينبغى أن نعرض لها إن أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة فى طبيعة الأرض الروحية الشيطانية . . أفلا يقع فى أخلادنا أننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ أليس تصور الروح الشيطانى سلطانا على الطبقة المظلمة من الهواء صدى واضحاً من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ أن التشابه لظاهر وأن البحوث التى عرضت لهذه المسألة لكثيرة منوعة ، ولكن الأرجح على ما يبدو أن بولس الرسول إنما اتخذ هذه الصورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود أن الأرواح الشريرة لا تهبط إلى ما

دون الهواء المحيط بالأرض وإنها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وإنما ترمز هذه الصورة فى ذهن بولس الرسول إلى خصومة أصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعالم عنده فى أساسه إنما هو الإنسان ، وهذا الإنسان الذى يوصف أنه أرضى وأنه موثق إلى الأرض وأنه خاطىء خليق أن يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفع بنفسه من الظلام إلى النور ومن الشيطان إلى الله » .

* * *

ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحية الأكبر الذى تتفق الكنائس على اعتماده فى العقائد الجوهرية ، ولكن العهد الجديد ينقسم إلى ثلاثة أقسام « أولها » الأناجيل و « ثانيها » أقوال الرسل و « ثالثها » أقوال الصحابة والرواة المتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء فى شروح بعض اللاهوتيين المحدثين أن الأناجيل وحى غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال الرسل وحى وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير بغير وحى ، وقد جاءت فى أقوال الرسل وما بعدها تفسيرات فى المنزلة الأولى من مأثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعاً ما جاء من خطيئة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسبق الإشارة إليه فى الأناجيل .

ففى هذه المراجع أول إشارة إلى تسمية الحية بالشيطان كما جاء فى الإصحاح الثانى عشر من أعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه « أنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إبليس والشيطان الذى يضل العالم . . » .

وفى رسالة يوحنا الرسولى الأولى « من يفعل الخطيئة فهو من إبليس ، لأن إبليس من البدء يخطىء ، ولأجل هذا ظهر ابن الله لكى ينقض أعمال إبليس » .

وفى هذه الرسالة أيضاً أن الإنسان من الله أصلا ولكن « العالم كله قد وضع فى الشرير » .

وتتكلم الكتب « البوكريفية » عن دخول الموت إلى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لا يرتقى إلى طبقة الأقوال المأثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد للترجيح والتفسير ، وسمى بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة فى اليونانية لأنه كان من المراجع التى يضن بالإطلاع عليها على غير الواصلين فى الإيمان والمعرفة .

وعندنا أن الفرق فى أوصاف الشيطان بين الأناجيل وما تلاها إنما هو الفرق بين الأوصاف السماعية والأوصاف القياسية أو العقلية فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » أو دور معلوم فى الأديان الكتابية قبل القرن الأول للميلاد ، وإنما كان فى الكتب العبرية أو اليهودية واحداً من الملائكة المغضوب عليهم أو واحداً من الأرواح المتمردة فلا يعرف إلا بما سمع من أوصافه ولا شأن له فى ذلك إلا كشأن الأبطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية التى تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس .

أما الشيطان الذى تقرر له « دور » معلوم أمام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر أن ينسب اليه كل ما يقتضيه ذلك الدور من الألوان والملامح والخصائص والتبعات ، ويجوز له كذلك أن ينسب له ما سوف يأتى به بعد أزمنة طويلة فى نهاية العالم ومصيره المقدور .

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الأرضى فى مقابلة العالم الإلهى فى السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة إلى رواية السماع ، وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب إليه كما تنسب الخصائص إلى معدنها بحكم البداهة التى لا تحتاج إلى عيان أو إلى إسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر — أى الشياطين كما جاء فى تعبيراته السابقة — هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبى ما يصنعون لأنهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم

بتقديم المسيح إلى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الأزل بما دبروه ورتبوه ، فقال عن حكمة الإيمان وحكمة الشيطان « إننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتوبة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا ، ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لأنهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد . . » .

فإذا كان الأئمة الأسبقون فى صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد فى الأناجيل ولا فى كتب العقد القديم فانما يذكرونه بالصفات التى تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية فى كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب .

وينبغى أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا فى تطور الأخلاق والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التى شاعت فى القرن الأول للميلاد .

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد فى العقائد البدائية ، وكان الروح الضار كالحيوان الضار فى مقاييس الأخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون أن يلقنها الشيطان غواية آدم ، فهى حيوان ضار يؤذى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير فى العقائد البدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان فى الميزان حتى وجب عقلا أن يكون الشيطان وراء الحية فى غواية آدم وحواء ، وحتى وجد فى عالم الضمير فارق واسع بين الخوف من لدغة الحيــة الماكرة ودسيسة الشهوة والعصيان .

* * *

إلا أن المسيحيين الأوائل استرسلوا فى حديث الحية لأنهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع فى « رؤى » النساك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس فى بحوث الفقهاء

وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتى عن الشيطان فانما يستنبط أوصافه بالقياس إلى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبيء صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية إنما ينقل رموزا وجدانية قابلة للمشاهدة فى الحس كما هى قابلة للمشاهدة فى الرؤيا ، وليس فى الأشياء التقليدية ولا فى تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة وإذا بولغ فى تشويهها وتشنيعها وتعظيم ضررها فهى التنين الذى يضيف اليه الخيال من الأشياء والطبائع ما لم يتحقق فى الحية المعهودة ، فهو ذو رأسين أو ذو أرجل وأجنحة أو ذو لسان يندلع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد ساعد على انتشار هذه الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من أقصى الصين إلى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وأنها كانت شائعة كذلك فى كتب العهد القديم ، وصادفهم خطر التنين الأكبر أو خطر الحية الشيطانية فى مقر عبادتها بآسيا الصغرى فكثرت فى رسائل العهد القديم إشارات النساك إلى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التى يظهر أنها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التى كان أصحابها يتألبون عمداً أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد .

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التى اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المسيحية وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال التنين وصور أخرى على مثال التنين فى جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس إنسان ذى قرنين أو أذنين صاعدتين فى مكان القرنين ، وكلما تقدم اللاهوت فى وصف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح إنسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله فى إيداعه دلائل الشر التى تغنى عن استعارة الشبه الشرير من مشابه الحيوان ، ولكنهم ظلوا إلى زمن أخير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون فى هذا الشبه بصورة « الساتير » اليونانى المتهالك على الشهوات ومعاقرة الخمور .

أما الصورة اللاهوتية فقد أفاض الآباء الأولون فى شروحها وفروضها

واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه فى تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان Tertullian المتوفى سنة ٢٣٠ م وأوريجين المتوفى سنة ٢٥٤م أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة فى وصف الطبيعة الشـيطانية وإسناد الأفعال والنيات التى تلائمها إلى الشيطان وأجناده على حسب درجاتهم فى السيادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشـيطان الأكبر يرصد شيطاناً من جنوده لكل إنسان من بنى آدم وحواء ، وأن أدلة وجود الشياطين عامة متواترة فى عقائد المهتدين والوثنيين المضللين ، وكلهم يسلمون أن الشيطان يتعقب الإنسان ويتسلل إلى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحى المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ فى هذه الشـياطين ويستطيع أن ينفذ منها فرائسها إذا صدقت نيتهم فى طلب الخلاص منها ، وليس المسيحى الذى يعجز عن قهر الشيطان خليقاً عنده بوصف الإيمان .

ولا شك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الأولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره ما لم يكن لأحد من معاصريه ، وكان إلى جانب ذلك مؤمناً راسخ الإيمان تقياً شديد التقوى ، ولم يكن له مطمع فى رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ، فقد جب نفسه ليتقى فتنة الشـيطان وهو يعلم البنات والفتيات ويعظ النساء فى البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه مناصب الكهنوت العليا التى تحرم على المجبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريرته من غواية الشيطان ، وهذا مع إسهابه فى التفرقة بين دواعى الشر التى يوحى بها الشيطان وجنوده ودواعى الشر التى ركبت فى طبيعة الإنسان وهى شهوات الطعام ولذات الجسد وفى مقدمتها اللذة الجنسية ، ولعله فى كل ما كتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات له يثبت قدرته على الغواية كما أثبتها على ذلك النحو الرهيب .

ولم يجد أوريجين مشقة فى إسناد الشر والخطيئة إلى سيادة هذا العالم ، فانه عاش فى زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب

السيادة هو المحنة التى أسقطت إبليس وجنوده وأن « التواضع » هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذى يزهد فى المواكب ويأتى كما أتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقاً لما تمليه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه فى تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه فى الهواء الكثيف المحيط بالأرض ويتطلب الغذاء من الدواخين والأبخرة والدم الخالص مجرداً من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الإلهية ويختلس أبخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها .

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ، ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا أن الطبيعتين تلتقيان فى ذرية الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فعشقوا بنات الناس وقالوا أنهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون عقباه .

وللشيطان سبيلان إلى غواية الإنسان فى رأى الفقيه الفيلسوف : أحدهما أن يوسوس له من حيث لا يراه لأن طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجرى من سريرة الإنسان مجرى النفس الذى لا تراه العينان ، والسبيل الآخران يستولى عليه ويتخبطه على هواه ويبتليه بالأمراض والعاهات ، وقد يسلط الأوبئة والطواعين على المدن والأقطار الواسعة ليذودها عن رحمة الله ، وله جنود فى كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الأوثان أو يعبدون ربا من الأرباب غير الإله الواحد الذى يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الأرباب والأوثان إلا شياطين من جنود إبليس تنتزع أبناء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال .

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة فى كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء فى ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الأكبر إبليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا

بما داخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد فغلبتهم الشقوة وعز عليهم أن يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقبلوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلستْ له قيادتهم ورفعوا على أعينهم تلك الغشاوة التي وضعوها عليها بأيديهم ، ولابد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التي يبتلى بها العالم كله آخر الزمان .

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره فى نهاية العالم لم يتبع أقوال المتنبئين وأصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدى الحكمة الحديثة فى عصره ، ولم تكن فى عصره حكمة أحب إليه من الحكمة الرواقية التى تلقاها اليونان قديماً من الهند وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس قبساً يقربها إلى العلم وأدب السلوك .

فقد وجد أوريجين فى عصره قصصاً دينياً مستفيضاً عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة فى آخر الزمان ، وفى هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وإبليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال الذى يدور سجالا بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون فى باطن الأرض أو يقيدون بالأغلال حتى الموعد الأخير ، وتروى هذه القصص أخباراً عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين لا يستطيعون الصعود إلى السماء أو الذين يصعدون إليها فيرتدون عنها خوفاً من الرجوم الإلهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو فى مغاور الأرض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين ، ثم تنشب الملحمة الأخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الأول بألف سنة ، فيذهب أهل النار إلى النار ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم .

أما « أوريجين » فنهاية العالم عنده هى نهاية الدورة الكونية التى اعتقدها الهنود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفرضوا لها آدابا من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهرا من شوائب الحياة الأرضية ، فيخلص إلى الوجود الحق فى آفاق عليين .

وستنتهى الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الأبدية ويبطل الفناء ويموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب فى عالم لا موت فيه ، ويتعذر — طبعاً وعقلا — أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلاص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز ألا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتى تباعاً على درجات مترقيات ، ولكنه لا يكون متى أتى الا كما ينبغى أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب .

* * *

ونكتفى بما لخصناه من شروح أوريجين وفروضه فى التعريف بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الأصح لأنه قد جعل هذا التعريف بابا من أبواب الدراسة اشتهر فى الأزمنة الأخيرة باسم « الديمنولوجى » أى علم الشيطانيات ، ولكننا لا ننتقل منه إلى ما بعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص . ففى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى إلى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالأمور المغيبة فى أدق الجزئيات ، وذلك هو سر قوتها وارتياح النفوس اليها من ظلمات الحيرة والريبة التى رانت على المذاهب جميعاً وتركتها لمعتقديها أشبه شىء بالسلوى التى يزجى بها الفراغ ولا تمضى مع الجد خطوة إلا عادت إلى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالجد فى ذلك العصر مذهب المعرفيين Gnostics الذى كان فى حقيقته عنواناً لكل مذهب يرد على الخاطر فى تلك الآونة ، إذ كانت المعرفة ألواناً وكانت ألوان الوسائل التى تطلب بها لا تقل عن ألوانها ، ومنها . فيما نحن بصدده من حديث الشـــيطان — معرفة الخبرة باللذات والرذائل المحرمة لأن الجهل بها يسلب طلاب المعرفة حظاً يتاح للجاهل ولا ينبغى لهم أن يتجنبوه ، وقد أباحت طائفة من هؤلاء المعرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التى كانت تعبده وتتقرب اليه باستباحة الرذائل والأرجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرفة

حتى تجمعت منها نحلة كبيرة أوشكت أن تعم القارة الأوربية من أقصاها شرقاً إلى أقصاها غرباً فى القرون الوسطى ، وبقيت منها — كما تقدم — بقية إلى أوائل القرن العشرين .

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء أكبر من أسماء القديس أوغسطين والقديس توما الأكويني ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذى سمى هو نفسه شيطاناً وسمى الحبر الأعظم فى زمانه بالشيطان .

عاش القديس أوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ — ٤٣٠) وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروض فى موضوع الشيطانيات ، وذهب فى علة سقوط الشيطان مذهباً كمذهب أوريجين فقال إنه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه فأنزله الله من سماء الأثير الصافى إلى هواء الأرض الكثيف ، ولا يمتنع عند أوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائماً للتناسل من الأجساد البشرية لأن الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الآدميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الإنسان كما زعم الفيلسوف الأفلاطونى أبوليوس Apuleius الذى كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول إن امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الإنسان فان الحيوان يمتاز على الإنسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال أنها أرفع منه رتبة لرجحانها عليه فى هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشرى ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء فى وعيد السيد المسيح .

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن مدينة الله أو عن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التى قد يسيطر عليها الشيطان عنوة أو بالكيد والخديعة ، وفى وسعه أن يتسلل إلى الأرواح من مسكنه فى طبقات الهواء

أو يترصد لها وهى صاعدة إلى الملأ الأعلى فانها فى معراجها لاتنى نعبر بالشياطين الملعونين والملائكة الأبرار ، فإذا كانت فى حياتها قد غلبت سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد فى المطامع فلا سلطان للشيطان عليها فى معراجها إلى عليين ، وإذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية الشيطان عالقة بها فتلك هى العلاقة التى يقنصها منها الشـــيطان ويعوقها بها من الصعود ويهبط بها إلى هوائه أو هاويته حيث يشاء .

ويرى أوغسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان عليم بالسحر قادر على نشر الأوبئة والمداواة منها ، وإن الأوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وفى وسعها أن ترضى عبادها بقضاء المطامع وترهبهم بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقتصر عن عزيمة الإيمان إذا صدقت نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون صدى فى حربهم معها لأنهم معانون عليها بكفارة السيد المسيح .

وأعظم الأعلام فى اللاهوت المسيحى بعد أوغسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الأكوينى (١٢٢٧ — ١٢٧٤) الذى فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق إليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الإرادة التى يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لأنه كان فى المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكانت قدرته كذلك على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شىء غير نفسه وطمح إلى مساواة الله فى عظمته ومشاركته فى وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره فهوى من عليائه وهوى معه تابعوه .

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعاً بالكائنات العقلية أو الكائنات الذهنية ، تمييزاً لها من الكائنات الحيوانية المولدة من التراب ويقول إنها مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج غاية ما انطوت عليه من الصدق والمناعة ، وقد يحدث ذلك بإذن الله وقضائه ، وقد تكون درائعه

الكبرى مستقرة فى غرائز الإنسان ويكون الإنسان فيها عدواً لنفسه إذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان .

ويجارى الفيلسوف من تقدموه فى الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والأفانين التى تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذى يرفض عقله التسليم بالعبث فى نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق فى طاقة الشيطان . ولا تعقل الخوارق إلا من عمل الإله الذى وضع للعالم نظامه وأجراه عليه ، وإنما يستطيع الشيطان إثارة المادة بعناصرها فيدمر بها من تراد له الفتنة ولا يتعدى هذه العوارض إلى تبديل جوهر المادة أو تبديل جوهر الروح ، وكل ما يصنعه الشيطان مما يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هو خداع لحس الإنسان حتى يرى الأشياء على غير صورها ، أو تبديل لأشكال تلك الأشياء لا ينفذ إلى الصميم .

ولعل القديس توما الأكوينى قد قال كلمة اللاهوت الأخيرة فى هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى فى تصوير الشيطان أو تصوير قدرته على بنى الإنسان .

ويأتى أكبر الأعلام بعده فى اللاهوت المسيحى على اتجاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لا يغير شيئا من وصف الشيطان كما يغير الشىء الكثير من وصف الذين استهواهم الشيطان فى رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا .

جاء مارتن لوثر فى أواخر القرن الخامس عشر وعاش إلى ما بعد منتصف القرن السادس عشر (١٨٤٣ — ١٥٤٦ م) ولم يتغير بين عصر الأكوينى وعصره معتقد واحد من المعتقدات التى كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية .

فكان لوثر يؤمن بوجود السحرة ومبايعتهم سرا أو علانية لأرواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الأوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الأبدى إذا ثبتت عليهم ممالأة الشياطين على المؤمنين الأبرياء ، وتمتلىء أحاديث المائدة التى نقلت عنه بما كان

يرويه لجلسائه من قصص الشياطين السحرة فى زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلا من المؤمنين بصق على الشيطان فلاذ بالفرار ، وأن رجلا آخر لقيه فكسر له قرنا من قرونه ، وحاول ذلك رجل آخر دونه فى الإيمان فبطش به الشيطان . ونصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان سخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به فى مجالسه قصة عن الإمبراطور فردريك الذى كان يصادق علماء العرب ويطالع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة أن الإمبراطور دعا إلى مائدته ساحرا مشهورا وأراد أن يناجزه فى القدرة فجعل له فى يديه مخالب كمخالب الرخاخ الأسطورية ذات الأجنحة والقوائم والأنياب ، فخجل الساحر ولم يمد يديه إلى الطعام ... وأنهم لعلى المائدة إذا بصيحة من الطريق تزعج الإمبراطور فينهض إلى النافذة ليطل عليها . فيغتنم الساحر فرصته السانحة ويجعل للإمبراطور قرونا على رأسه كقرون الأيائل ، فلا يستطيع أن يرتد برأسه من النافذة وعليه تلك القرون ...

وعلى جدار من جدران قلعة « وارنبرج » مداد سائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين أنه من مداد الدواة التى ألقاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار زمانه ، ولم يبرح لوثر طوال أيامه إلى آخر حياته ينادى بأنه فى حرب مع الشياطين ويحسب القائمين بالسلطان فى الأرض باسم الدين ثوارا على ملكوت السماء .

* * *

ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت فى كل وجهة يتجه إليها بالكلام فى « الشيطانيات » أو علم « الديمنولوجى » كما عرف فى الزمن الأخير .

كانت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لأنه كان يدور على

السحر والسحرة ومخالفة « المعرفة الدنيوية » للشياطين أعداء الله وأعداء الدين وكانت مجالس التفتيش تعمل عملها فى مطاردة السحرة أو المتهمين بالسحر لأنهم ينظرون فى الكتب التى لا يقرأها اللاهتيون .

وانقسم الباحثون فى « الدينمولوجى » قسمين متنازعين ؛: قسم اللاهوتيين وهمهم الأكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الأكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيطان ، ويشككوا فى وجود الشيطان أو يجزموا بانكاره لأنه لا يظهر لهم عيانا ولا يظهر لهم بالتجربة والبرهان .

غير أن اللغة التى تداولها الناس من قبل القرون الوسطى قد تلقت من « الدينمولوجى » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على أحد يتكلم بها أو يسمعها ، وجرت هذه التعبيرات على ألسنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين أو المتشككين فى العقائد الدينية . فلما كان لوثر يقول — مثلا — عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة فى القرون الوسطى انها « مخترعات » شيطانية وأن الشيطان هو الذى يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن أحد يحمل كلامه على المجاز أو يشك فى قصده إلى شيطان غير شيطان النصوص الدينية الذى يجوز أن يبدو للعيان أو يعمل مع أصحاب تلك البيوت فى الخفاء . ولكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البخار الضخمة فوسموها « بالشيطانية » ونعتوها بالصناعة السوداء أو بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذى لا يختلفون فيه ويفهون منها أن تلك الصناعة خلو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام الغشم والقسوة ، سـواء نسبوها إلى الشيطان أو جعلوا الشيطان علما مفهوما على كل هذه المساوىء والنعوت .

ويغلب على الظن أن سهولة التعبير المجازى على هذا النحو سولت لأناس فى القرن التاسع عشر أن يقحموا فوارق اللون والعنصر فى أحاديث « الدينمولوجى » وأن يزعموا كما زعم الدكتور كارترايت أن الشيطان

لم يتكلم في الجنة بلسان الحية بل كان كلامه بلسان زنجي أسود على مثال الشيطان الذي كان يصبغ بالسواد في القرون الوسطى ، وكأنما أراد كارترايت أن يترقى بالفكرة درجة فوق الدرجة التي وصل إليها الأسقف آدم كلارك في تعليقاته على سفر التكوين (بسنة ١٨٢٥) فجعل الحية زنجيا بعد أن كانت في رأى كلارك قردا من فصيلة الأورانج أو تانج .. وفي هذه الآونة — أو حوالها — كان الرحالون يسيحون في أمريكا الجنوبية فيسمعون من أهلها البيض أن الزنجي هو البهيمة الكبرى التي ذكرت في كتاب الرؤيا الأبكريفية (١) ويتشكك الكثيرون منهم في نسبته إلى حام ، لأنهم لا ينسبونه إلى فصائل الآدميين .

يعود نقاد الاجتماع المحدثون إلى عقيدة الخطيئة وزلة آدم في الفردوس وهبوطه مغضوبا عليه إلى الأرض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الأحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جون فلكسر Flexner الأمريكي الذي يقول في فصل كتبه عن الملك والفنان : « إن عقيدة القرون الوسطى أن الانسان سيء بطبيعته من أثر الخطيئة المتأصلة فيه وقد وافقت الميول الأرستقراطية لأنها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن الطبقة الوسطى الناهضة باجتهادها لتستقبل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الإنسان وأنه قد ولد ملكا وأفسدته النظم التي فرضها عليه الملوك .

وليس في المقارنة بين العقائد والأحوال الاجتماعية ما يرجح هذا التفسير أقل ترجيح ، لأن عقيدة سقوط آدم تشمل الإنسان الحاكم وتشمل الإنسان المحكوم ، وقد اقترنت بها عقيدة ملازمة لها أشد قسوة على الحاكمين من كل عقيدة شاعت في العصور الحديثة ، وتلك هي عقيدة السيادة الشيطانية على الأرض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين .

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التي تفرق بها كل

---

(١) كتاب « الكبرياء العنصري » تأليف دنجوال . Racial Pride by Dixgwall.

التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله ، وتكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة فى هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الأصيلة ، فقد كان حتما لزاما أن تجتهد المسيحية اجتهادها كله فى التفرقة الكاملة بين مملكة الأرض وملكوت الله الذى بشر به السيد المسيح : كان ذلك حتما لزاما لأنها نقلت رسالة المسيح المخلص من إقامة العروش على الأرض — أو تجديد ملك داود — إلى إقامة الملكوت الإلهى فى السماء ، وكان ذلك حتما لزاما لأنها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الأرض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم فى حمى الله صاحب الملكوت الأعلى إذ يكون أصحاب السيادة والطغيان فى حمى الشيطان وفى هاوية الأرض وما وراءها من هاوية الجحيم : « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات .. » .

فرسالة المسيحية فى جانب الإنسان المغلوب ، وسيادة العالم هى ثمرة الخطيئة التى باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيما له بل تهوينا من شأن العالم وتحقيرا لغنائمه ومطامعه وشهواته ، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية فى الحضارة الحديثة من أن يقول أنه هدم سيادة الشيطان وأنه علب الخطيئة فى معقلها وكفر عن جرائرها بالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية .

وعلى هذا الفهم ينبغى أن تفهم رسالة المسيحية التى بشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعى على السيادة الشيطانية والازراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو فى لبابة تهوين للعالم الذى يسوده وتقديس للملكوت الإلهى الذى يرجوه المساكين والحزانى والودعاء والمطرودون من أجل البر وصانعو السلام .

أما رسالة المسيحية فى تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهى تفرقة أخرى لا تقل فى قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء .

لقد كان الضرر والشر مترادفين فى الديانة العبرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هى التى فرقت بين الضرر الذى هو نقيض السلامة والأمان والمنفعة ، وبين الشر الذى هو نقيض الخير والفضيلة والصلاح ، فذلك ضرر مرتبط بالأنانية ، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى .

إن المسيحية هى التى فرقت بين مثال الضرر فى الحية الحيوانية ومثال الشر فى الروح الخبيث الذى ينفث سمومه فى القلب ولا يضير الإنسان إلا حيث يضار حقا فى أشرف خصال الإنسان .

* * *

وكلمة عابرة تقال فى ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التى جاءت بها للتعريف بمعانى الشيطان .

إن الكنيسة الرومانية إذا رفعت أحدا إلى منزلة القديسين لم تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التى تنتفى معها القداسة ، وتعهد فى هذه الحالة إلى وكيل للخصومة عليم بكل ما يقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل .

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامى الشيطانى Advocatus Diaboli تشبيها لعمله بعمل الشيطان فى إنكار فضائل أيوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان فى امتحان الخير ، وأنه دور لازم فى تقرير كل قداسة يخلقه الناس مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال انه وهم من اختراع الخيال .

الأديان الكتابية

(ج) الإسلام

دور الشيطان فى الديانات الكتابية الثلاث مختلف .

واختلافه بينها جوهرى يدخل فى كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب .

فهو فى الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لأنه شبيه بغيره .

وهو فى الديانة المسيحية دور عامل فعال لا ينفصل من حكمة الوجود كله .

وهو فى الديانة الإسلامية دور عامل فضولى مرذول ، يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف .

على مسرح الخلق دور الشيطان فى الديانة العبرية دور « النكرة » الذى ينوب عنه كل نكرة مثله ، إذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الإله الذى يعبدونه والإله الذى يعبده سواهم خلاف فى الرضى والغضب ولا فى النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء فى السلطان .

أما فى المسيحية فدوره على مسرح الخليقة دور الشرير فى قصة الخلق كله ، إذ كان قوام الخليقة سجالا بين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ، ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة إلى الخلاص من طريق الفداء .

وليس فى الإسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لبنيه ، فغواية الشيطان لا تخلق الخطيئة ولا تعفى منها ، وشوكة الشيطان لا تحمى أحدا ولا هو يسخرها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان

وحيث لا يعمل ، فهو لا يحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من أوزاره ، ولا يدارى حماقة الغافل الذى ينقاد إليه .

وفى القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على علمهما بغواية الشيطان « **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** » .

وكلما ذكرت فى القرآن الكريم غواية إبليس ذكر معها أنه ما كان عليهم من سلطان ... « **ان عبادى ليس لك عليهم سلطان** » .

وكذلك تقول الشياطين لمن يرجع إليها بذنبه « **وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين** » .. « **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين** » .

ولا ينفع من ضل أن يعتذر من ضلالته بوسواس الشيطان ، فان الشيطان ينكره ويبرأ منـه « **كمثل الشيطان إذ قال للإنسـان أكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين** » .. « **وقال الشيطان لما قضى الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم** » .

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الإنس ، فان الشيطنة هى عداوة الحق حيث كانت : « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** » .

بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر إلا أنه خداع للحس وفتنة للنفس تخيل إلى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة فى غير وهمه : « **.. يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن**

الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق » .

وفى سورة سبأ عن جنود الجن التى جهلت موت سليمان وهو قائم أمامهم « **فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** » .

وإنما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس « **إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** » .

« **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** » .

« **ولا يفلح الساحرون** » .

وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان « **ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات** » .

وفيه ذكر الجن التى تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التى تسترق السمع من السماء ، وذكر الجن التى تقارن الإنس ، وذكرت الجن والعفريت الذى تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنّه لم يذكر لها فى مجال التكليف عملا قط يسقط عن الإنسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئة ، ولا يستعاذ فيه من شر يأتى به الجن إلا وهو كذلك من الشرور البشرية ، أو من الوسواس الخناس « **الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس** » .

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت فى قصة آدم وما بعدها من قصص الأولين .

وقد رويت قصة آدم فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، ورويت توبته من عمله أو قوله فى بعض هذه المواضع ، وهى جميعا مآل التكليف

الذى يفرض على الإنسان : يسأل عن خطيئته وأن وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وإن كانت بهداية الله .

« وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم . قلنا أهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وجاءت فى سوة الحجر حيث يفاضل إبليس بين خلقته وخلقة آدم :
« والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، وإذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلامن أتبعك من الغاوين » .

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن معنى

الشجرة التى أكل منها آدم فى الدين الإسلامى ، وقال بعضهم إن القرآن تركنا فى حيرة من أمر هذه الشجرة ، ما معناه وماذا جناه آدم وحواء من جراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس فى الأمر ما يدعو إلى التساؤل ولا إلى الحيرة ، لولا أن هؤلاء الشراح وضعوا فى أذهانهم معنى معلوما وأرادوا أن يجدوه فى القرآن فلم يجدوه كما أرادوه . إذ لا يخفى على الناظر فى القصة أن ثمرات هذه الشجرة هى ثمرات « التكليف » بجميع لوازمه ونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قبل الأكل منها وبعد الأكل منها إلا الفارق بين الحياة فى دعة وبراءة والحياة « المكلفة » التى لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب ، وكلما تكررت القصة فى الآيات القرآنية كان فى تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك جليا من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصة فى سورة الأعراف ، وذاك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضى القصة على ما يلى :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج انك من الصاغرين ، قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لاعقدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سواءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما

الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف فى هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغنى عن خطاب بنيه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وكلفته لا تلزمهم وتوبته لا تغنى عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على الأحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكدحون وحيث يموتون .

ويميل الشراح الغربيون إلى النقد كلما وجدوا له ندحة فى قصص القرآن ولاسيما هذه القصة ،وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل «بابينى» الايطالى صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر إبليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن فى تحريم الشرك وتنزيه الوحدانية الإلهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغة العربية يفهمون معنى السجود هنا ولا يخرجون به عن معنى التحية والإكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لانه يريد أن يرجع بعقائد الإسلام إلى الأصول الإسرائيلية كما فعل تورى Torrey فى كتابه عن أسس الإسلام من التراث اليهودى ، ولم يكن فى التراث اليهودى ذكر لغير الحية فى هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا فى التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيوانى والشر الأخلاقى كما قدمناه .

* * *

وقليل من النقاد الدينيين فى الغرب من يفطن للخاصة الإسلامية الأخرى التى تتمثل فى قصة آدم مع الملائكة والجان ، فان الغالب عليهم

أن يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطا » ويرتبوا عليها ما يترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين ، وليس فى القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى فى حق كائن من الكائنات العلوية أو الأرضية ، فليس فيه شيء عن سقوط الإنسان وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، أو من عهد البراءة والدعة إلى عهد التكاليف والكلفة ، وليس فيه شيء عن سقوط الملائكة وانحدارهم من طبيعة عليا إلى طبيعة دونها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين ما يعزى إلى الملك ويعزى إلى الشيطان من ضروب السحر المباح أو السحر الحرام : « **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ..** » .

فالملك الذى يعرف السحر لا يخدع به أحدا ولا يعلم من يريد أن يتعلم إلا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان .

* * *

هذه القصة بعينها — قصة هاروت وماروت — يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسفون الأقوال والشواهد لردها إلى المصادر الإسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينفون العلاقة بينها وبين تلك المصادر فمن الذين ردوها إلى المصادر الإسرائيلية من يرى أن الملكين هما أريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب أدريس ، ويستند صاحب كتاب أساطير اليهود إلى مراجع كثيرة لتصحيح هذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسى [1] ... ويزعم جيجر Geiger أنهما الملكان شمهازى وعزائيل اللذان هبطا إلى الأرض فى عهد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدا أنهما « حسنات » كما جاء فى سفر التكوين ، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات

(١) ص ١٦٠ من الجزء الخامس من مجموعة جنز برج .

هايد Hyde فى تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها إلى أصل بابلى كما جاء فى القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الأسماء ومخالفته أمر ربه بغواية الشيطان ، وهى القصة التى يحسبها بعضهم من الأخبار التلمودية ، ويقول ابشتين وجرنبوم أن التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الإسلامية وبطريق غير مباشر من المراجع المسيحية .

غير أن هذه المناقشات جميعا يعتورها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذى من أجله استحقت القصة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة فى مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة فى هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التى ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت بنصها وحرفها فى الروايات المتعاقبة .

وجوهر المسألة كله فى القصة التى نحن بصددها أن القرآن الكريم لم يذكر قط شيئا عن سقوط الخليقة من رتبة إلى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئا عن سقوط الخطيئة الدائمة أو سقوط الخطيئة التى يدان فيها الإنسان بغير عمله ، إذ العقيدتان — كلتاهما — غريبتان عن روح الدين الإسلامى كل الغرابة ، ولا يعرف الإسلام إرادة معاندة فى الكون لإرادة الله يكون من أثرها أن تنازعه الأرواح وتشاركه فى المشيئة وتضع فى الكون أصلا من أصول الشر وتسقط الخلائق التى ارتفعت سوية بمشيئة الخالق . فقد جاء الإسلام بهذه الخطوة العظمى فى أطوار الأديان فقرر فى مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصح العقائد التى يدين بها ضمير الإنسان ، وقوام ذلك عقيدتان : أولاهما وحدة الإرادة الإلهية فى الكون ، والثانية ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربه .

فليست الخطيئة فى الإسلام أصلا كونيا يعاند الارادة الإلهية بارادة مثلها أو مقاسمة لها فى أقطار الوجود العليا والسفلى ، ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه من عمل العامل نفسه بالتوبة والهداية أو بالتكفير والجزاء ، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الأسماء التى لم يتعلموها ، كانت هدايته إلى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الإلهية ولم تكن بشىء غير عمله وقوله .

فاذا فهمت العقيدة الإسلامية على هذا الوجه فهذه هى القيمة الروحية التى تجرى المقارنة والموازنة عليها كائنا ما كان القول فى تشابه الأسماء والقصص وتوافق المراجع والأسانيد ، وما من دين قط خلا من الأسماء والقصص التى سبقته إليها الأديان المتقدمة عليه فى تاريخ دعوتها ، وليس أكثر من الأسماء البابلية والفارسية فى كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعا فى المراجع المسيحية ، وإنما العبرة بالقيمة الروحية التى تناط بها فى مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الايمان ، وتلك هى مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ، ولا خلاف — مع فهم هذه المسألة — على فضل الإسلام فى هذه السبيل .

* * *

ان الأديان الكتابية لم تتعاقب عبثا ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها .

فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا زمنا يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر ، ولبثوا زمنا أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية فى الوجود كله وبين الوحدانية التى تميزهم بإله لا يقبل المشاركة من الأرباب الأخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة .

ثم جاءت المسيحية ففصلت بين الخير والشر بفاصل كبير ، وحققت معنى الخير الروحانى الذى ينفصل من معنى المنفعة والسلامة ، وباعدت بين العاملين وتركتهما من بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه فى السماوات

وهذه فى الأرضين ، وتكاد الأرضية منهما تبسط يدها إلى حوزة الأخرى وتأخذ منها إلى حوزتها معقلا يسترد ويستعاد ، ولا يملك الإنسان فيه حيلة أمام الإله وأمام الشيطان ، وإنما يجىء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الإله .

ثم جاء الإسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثنوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الإرادة الانسانية حقها وتبعتها وجعلها ظالمة لنفسها إذا سمحت للشيطان أن يظلمها ، فانما هو خداع وضعف ، وإنما هما طريقان بينان لا يخدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور ، إلا أن يؤثر الضلالة على الهدى ويصر على ضلالته بين دواعى التوبة والندم .

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثا ولم يكن لها فى أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظرنا إليها فرضا وتقديرا ولم ننظر إلى وقائع التاريخ .

* * *

وكل ما تقدم إنما يتبين لنا من العقائد الإسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه مفسرون ، ولعله لا ينصف العقائد الإسلامية شىء كما ينصفها فى هذا المقام أن نرجع إلى المسيئين فنراهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سندا محققا عند أصحابها الأولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم لأنهم لم يفهموا كتبهم فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الأحاديث .

* * *

وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين فى شئون الغيب ، ولكننا نلخصها اجمالا فيما نحن بصدده من طبيعة الشيطان وطبائع الخلائق العلوية كالملائكة والأرواح . فأضعف الأقوال أن الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها

القول الذى أخذ به الفيلسوف الرازى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة ... » .

ولا حاجة بنا إلى اسهاب أو إيجاز فى نقل أحاديثهم عن الجن وأسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وخطله ليس له مساس بما نعنيه فى هذا السياق .

عبّاد الشيطان

تخلفت — بعد الأديان الكتابية — نحلة تتسم بالشذوذ المطبق فى جميع أطوارها . لأنها شاذة فى موضوعها ، وشاذة فى انتسابها إلى أصولها ، وشاذة فى تلفيق مقوماتها وأركانها ، وشاذة فى وسائل نشرها والدعوة إليها .

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان .

وانتسابها إلى أصولها شـاذ لأنها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الأولى والأديان الكتابية .

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ فى شذوذ ، لأنها تجمع النقائص فى شعائرها وتعمل أحياناً على مرضاة الشـيطان ومرضاة الإله الأعلى بفريضة واحدة .

ووسائل الدعوة اليها شاذ لأنها سرية يبالغون فى كتمانها مع امتداد معابدها فى آسيا الوسطى إلى أوربا الغربية وأفريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون فى أمرها من الذى يتولى نشرها وما بواعثه النفسية أو القومية التى تحضه على نشرها ، وهى مع الأديان الأخرى بين موافقة تأباها تلك الأديان ومناقضة تثيرها عليها .

* * *

ومن العسير أن توضع هذه النحلة فى نسق منتظم مع تطور العقائد فى مجموعة الأمم الإنسانية ، ولكننا نحاول وضعها فى مدرجة من هذه الأطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الأصول الجغرافية والعنصرية .

فمن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمى قديماً إلى الشعور بقوة الشر فى البيئة التى نشأت فيها وأحاطت بها .

ومن الراجح المعقول أيضاً أن الشعور بقوة الشر قد كان على أشده، حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخيانة ، وجعلوا لإله الشر حصة فى الكون مساوية لحصة إله الخير أو قريبة منها ، وتلك هى الثنوية « الزردشتية » منذ أقدم أطوارها .

وينبغى أن نذكر أن الثنوية كانت تفرض لإله الشر فى بعض الأزمنة سلطانا أكبر من سلطان إله الخير فى العوالم الأرضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالنور والخير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الأرضين السفلى إلى الموعد المعلوم ، ثم يتقهقر هذا السلطان فى العالم الإنسانى ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين .

قامت هذه العقيدة قديماً فى أرض فارس على تخوم السهوب الآسيوية ، حيث لا تعرف العشائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال فى كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرور وفتك السباع والأفاعى ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن فى طريقها ما لم تكن على هوى الشيطان .

ولم يكن هوى تلك العشائر فى حياتها الأولى مخالفاً كل المخالفة لهوى الشيطان فى عنفه وعسفه أو فى كيده أو ختله أو فى اندفاعه مع شهواته وأطماعه ، فكانت تنساق لأهوائها حين تزعم أنها تنساق لأهواء الشيطان .

فى تلك الأرجاء تأصلت العبادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهى عبادة الأرواح والشياطين .

فى بلاد العمار — أو بلاد الحضارة الفارسية — تهيأت الأذهان للعقائد الكونية الواسعة فتأصلت الثنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الأرض ولكنه مغلوب بعد حين ، وأن « أهريمان » رأس الأرواح الخبيثة نافذ السلطان فى عالم الإنسان .

وفى السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشعائرها التى لا تفصل بين الكهانة والسحر بفاصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيباً هادئاً إذا رضى واستراح إلى مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثاً عارماً يتخبط فريسته فلا تجدى عنده شفاعة الكاهن الساحر أو يثوب إلى السكينة بمحض هواه .

* * *

لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل الميلاد .

ونشطت مع المسيحية فى مجال واحد عقـــيدة ثنوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند إلى الجزر البريطانية ، وهى عقيدة « مترا » بطل النور الذى استشهد فى حربه لإله الظلام ، ووعد عباده بالعودة إليهم بعد حين مظفرا متمكناً من الأرض والسماء ما دامت الأرض والسماء .

وانهزمت عقيدة « مترا » أمام المسيحية .

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تقتلع الثنوية من جذورها ، ولم تكن أحوال العالم فى القرون الأولى بعد الميلاد مما ينسى الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن المسيحية فى دعوتها تنفى غلبة الشيطان على العالم وانقياد الســادة المسيطرين على الأمم لوساوسه ورذائله ، فتجمعت من بلاد الثنوية نحلة أخرى تسمى المانونية منسوبة إلى « مانى » الذى ولد فى بابل الجنوبية حوالى سنة (٢١٦ للميلاد) واستهل دعوته فى إبان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثانى « سابور الأول » نصير قوى أيام حكمه ، على أمل منه فى توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع مانى أن يصمد لأقطاب النحل الأخرى بعد حكم سابور ، فألقى فى السجن حيث مات وهو يناهز الستين ، ووسم أتباعه باسم الزنادقة أى الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم أنهم « أهرمانيون شيطانيون » .

إلا أن « مانى » كان من المجددين فى عقائد قومه وفى ثقافتهم وفى كتابتهم الأبجدية ، ومن مساعيه فى تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية

وتنقيح أوزان الشعر والأناشيد المقدسة وتقريب مذاهب المعرفيين Gnostics إلى مذاهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحانى من طريق الحكمة والتعمق فى أسرار العلوم .

ولم يخرج مانى من نطاق الثنوية فى آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبه ثنوية « زردشتية » أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء المعرفيين وعقائد المسيحية فى الصدر الأول قبل أن يتوسع فيها الآباء المتأخرون .

فالوجود من أزل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغى على الآخر إذا شاء ، ولكن عالم النور لا يعرف البغى بل يعرفه رب الظلام حسدا لرب النور ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ويأبى رب النور أن يقابل العداء بالعداء لأنه بطبيعته محبة وسلام وحسبه أن يتجلى حيث شـــاء فيجفل منه الظلام .

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النورانى يحاول أن يكمن فيه وينتزع منه ما استطاع ، خلق رب النور آدم السماوى وأرسله إلى الأرض بمزيج من طبيعة الملك العلوى والحيوان الأرضى ليلقى جنود الظلام فى ميدان القتال ، وكان آدم هذا — أو جايومارث كما يسميه المجوس — طيبا سليم القلب يحارب شريراً مزودا بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع فى أسر الظلام ولم يجد رب النور بدا من الهبوط بنفسه إلى الميدان لإنقاذ مخلوقه الأثير لديه من غياهب العالم السفلى ، فأنقذه ورفعه إلى الشمس حيث يقيم بعيداً من الأرض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين .

إلا أن الإله السفلى عرف من تركيب جايومارث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » آخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وظل آدم حائراً بين طبيعته حتى أشفق الإله السماوى عليه فأرسل إليه المسيح ليدله على أشرف طبيعته ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطبيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدى واستبعد روحى » وخذلته حواء فهبط بها الملائكة إلى الجحيم ومعها ذريتها من أبناء الشياطين

ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء إلا أن يستخلصوا العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم السفلي بالدمار .

سرى هذا المذهب المانوى شرقاً إلى الصين والهند وغرباً إلى افريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للبشرية وسيادته على العالم الأرضى وبقائه متسلطاً عليه إلى اليوم الأخير .

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوربة الشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسامع بأن إله المسيحيين ترك الأرض للشيطان الأكبر فلا حيلة لها معه غير أن تترضاه وتزدلف إليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة فى تلك الأقطار إلى ما بعد القرن الثانى عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » — أى النحلة الشيطانية — غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون .

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى — أو نحل شتى على الأصح — تعرف باسم النحل الأورفية Orphism وتشترك فى المراسم الخفية التى تعاقر فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم ديونيس Dionysus الذى يعتقد اليونان أنه ابن زيوس رب الأرباب من بيرسفون وأنها حملت به منه وهو متنكر فى صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا » قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب النحل الأورفية يحتفلون به ويتخذونه رمزا للأهواء والآلام .

ويعتقد الأورفيون أن الإله أورفيوس يهدى صحابته فى ظلمات العالم الأسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف فى الديانة المصرية القديمة .

وظاهر من صور الشيطان التى شاعت بين الأوربيين المشارقة فى صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسس صاحب التجلى الأعظم فى حفلات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدى يربونه

لهذا الغرض ويصورونه — أى ديونيسس — فى صورة « الساتير » الذى يتزيا بجلد المعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنبا طويلا كأذنابها ويمشى بقدمين لهما ظلفـــان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل عباده الأولين .

ومع المانوية والشامانية والأورفية ينتشر المعرفيون من بلاد فارس إلى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص إلى النور من طريق الظلام ، والخلاص إلى الطهارة من طريق الرجس ، والخلاص إلى الله من طريق الشـــيطان ، والخلاص إلى المعرفة من طريق الجهالة بمعانيها جميعاً فيما اشتملت عليه من جهالة العقل وجهالة الطباع .

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها نحلة الشـــيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور النزاع بين بقايا الأديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشـــيطان فى بعض اللغات الأوربية الشرقية أن المظالم الاجتماعية كانت بعض أسباب الكفر بالإله السماوى والإقبال على عبادة الشـــيطان المتمرد الذى يناوئه ويعلن الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكونى الذى هم ضحاياه .

* * *

ولم يكتب عباد الشـــيطان أسرار عبادتهم ، لأنهم كانوا يكتمونها حذرا من خصومهم ويكتمونها مجاراة لطبيعة العبـــادة « الشـــيطانية » التى لا غنى لها عن الظلمة والخفاء ، وما رواه عنهم خصومهم لا تتفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا نخال أن عبادات الشـــيطان كانت متفقة بينها فى أماكنها المتباعدة بين آســـيا الوسطى وأوربة الغربية . فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الأقاليم والسلالات واللغات والأحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية إذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات .

إلا أن المشهور من نحل العبادة الشيطانية ثلاث ، هن الكاثارية

والبوجمولية والألبية ، ويرجح المؤرخون لها أنها أسماء مفترقة لنزعة واحدة تختلف فى التسمية حسب علاقاتها المحلية ، مع وحدتها فى مصادرها والتقاء مصادرها جميعا فى الرقعة الوسطى بين القارتين الآسيوية والأوربية.

غلبت الكاثارية على العشائر الألمانية ، واسمها مستعار من كلمة Gathar بمعنى الطهارة فى اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت فى أصلها نحلة زهد ورهبانية ثم انحرفت قليلا قليلا إلى خليط مون الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضارات الأولى .

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحباب الله ، أو مأخوذ من اسم داع مشهور من دعاتها حولها من العبادة الصريحة إلى عبادة الخفاء Bogomil .

وغلبت الألبية Albigenses على فرنسا الجنوبية ونسبت إلى « ألبى » Alb التى كان مركزها الأشهر فى غرب القارة وجنوبها .

ولم تتفق هذه النحل فى شعائرها وعقائدها كما أسلفنا ، ولكنها تتفق فى قاعدة مشتركة بينها وهى قاعدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضاف إليها حواشى الوثنية المحلية والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعاً من إباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التى تخالف بها جميع الأديان الكتابية ، وإن لم يكن بينها وفاق شامل للمحرمات والمباحات .

فنها ما يحرم الزواج لأن الزواج يستبقى النسل فى عالم الشر والفساد ولكنه لا يحرم الفسق ولا الشذوذ ، بل يدخلهما أحيانا فى الشعائر المفروضة لأنهما يرضيان الشيطان .

ومنها ما يحرم اللحم والجبن والبيض وكل ما جاء من تناسل بين ذكر وأنثى ، ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم أنه لا يولد بالتلاقح بين الجنسين .

ومنها ما يزعم أن آدم طلق حواء وتزوج بالربة البابلية التى تسمى ليليت أو ليلى ، وأن حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الإنسانى خليطاً من الآدميين والمردة وذرية الأرباب الوثنية .

ومنها ما يقدس المسـيح وينكر الصليب ، ولا ينكرونه لتكذيبهم صلب المسـيح ، بل لأنهم يقولون « ان ما من أحد يعبد المشنقة التى خنقت أباه ! » .

واشتهر من عبـاداتهم عبـادة القداس الأسود ، ومحورها صورة الشيطان عارياً وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه وتنقل اليهم « البركة » بلمس أعضائه ، وتنتهى الصلاة بضروب من الإباحيات كالتى كانت تقترف فى عبادات أرباب النسل عند الوثنيين .

وكل جماعة « سرية » ظهرت فى القرون الوسطى فهى على صلة بطائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التى سميت باسم الهيكليين والجبليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حبلا قصيرا ويلبسون قميصاً يسمونه الكميسية (Gamisia) ويقال أنهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التى كانت معقلا للهيكليين وكانت الكلمات العربية شائعة فى لغتها منذ القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك إلى اليوم .

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هى سيادة سلطان الشر على العالم الأرضى خاصة وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة السفلى ، وضرورة « التفاهم » مع الشيطان فى أمور هذه الدنيا أو ضرورة هذا التفاهم فى كل أمر من الأمور . لأن إله الخير على قوته وحكمته قد نفض يديه من دنيا بنى آدم لاعوجاجهم ودخيلة السوء فى طباعهم باختيارهم لا بدسيسة عليهم من قبل الشـيطان .

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الأوربيين الغربيين ، وسيق ثلاثة وستون رجلا وامرأة إلى محكمة التفتيش فى طولوز (يونية سنة ١٣٣٥) فقالت إحداهن آن مارى جيورجل « ان الله ملك السماء والشيطان ملك الأرض ، وهما ندان متساويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة وينفرد الشـيطان بالنصر البين فى العصر الحاضر » (١) .

---

(١) القداس الشيطانى تأليف رودس The Satanic Mass by Rhodes

وينقل رودس صاحب كتاب القداس الشيطانى نبذا من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه Michelet يفهم منها أن هذه العبادات قد امتزجت زمنا بالثورة الاجتماعية وانحلال الأخلاق وفتور الإيمان بالدين ، فقد كان القداس الأسود صلاة إلى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن فى الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجمع أحد الرجال المندوبين للعبادة فيتمم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محرابا حيا للمعبود [١] .

* * *

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لاشك أنها كانت أطول مما يتاح لها لولم يكن لها سند من الحوادث غير مزاياها الخلقية أو الوجدانية ، ولكنها استفادت من تنازع الكنائس وانحلال الدولة الرومانية وغارات الهمج وما اقترنت به من السبي والسلب والإباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الأرضية ، فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المتسترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات فى محاربته والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل وأخذتها الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة ، فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر ، إلا إذا صحت الإشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التى كانت تستتر باسم الماسون فيما رواه الصحفى الفرنسى جوكاند Jogand وأثار حوله حملته التى سماها الشيطان فى القرن التاسع عشر ، ولم تقم عليها البينة القاطعة بعد البحث فى أسانيدها ودعاواها .

* * *

أما النحلة التى ينسبونها إلى الشيطان ولا تزال لها بقية فى العصر الحاضر فهى النحلة اليزيدية التى تقيم فى شمال العراق وينتمى أبناؤها جميعاً إلى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال

---

(١) صفحة ٥٣ من الكتاب المتقدم .

أحد علمائهم أو جهلائهم لأنهم يحرمون التعليم على عامتهم ويجعلونه وقفاً على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الأسرار فى هذه الديانة ، فمن كان منهم عالماً بتلك الأسرار فهو لا يبوح بها ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى ما يسمعه ويؤذن له بعلمه ، وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها سواء منهم من أباحوا له العلم أو حرموه عليه .

ويرجع بعض الباحثين بالاسم إلى يزيد بن معاوية ، ويرجع آخرون به إلى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم إلى اسم يزدان الإله الأقدم فى الملة المجوسية ، وغير بعيد أن يكون الاسم منسوباً إلى يزيد ، الخليفة الأموى ، لأن النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصيانهم فى السياسة وفى الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين إذ كان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التى تؤله « يزيد » فى صورة الإله الأرضى مقابلة للطائفة الفارسية التى عرفت باسم « على الإلهى » لأنها تغلو فى حب الإمام على رضى الله عنه إلى حد العبادة .

تؤمن الطائفة اليزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور إله واحد كما تضاء الشمعة من الشمعة ، وقد خلق كل منهم فى يوم من أيام الأسبوع وندبه الإله الأكبر لإبداع جزء من العالم الأعلى أو العالم الأدنى ، وهم يعتقدون أن الله خلقهم من نطفة آدم غير ممتزجة بجسم حواء ، خلافاً لسائر البشر ممن ينتسبون إلى آدم وحواء ، ولعلهم أخذوا معتقداتهم هذه من المانوية أو من المعرفيين الذين يرون فى أساطيرهم أن آدم طلق حواء فأسلمتها الأرباب إلى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو آدم الحادى والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمعصية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المرأة ، وهم اليزيديون .

ويعتقدون بتناسخ الأرواح وعودة الأشرار إلى الحيــاة فى أجســاد الحيوان ، ويحرمون ألواناً من الأطعمة والأكسية لا يعرفون علة لتحريمها غير التعلات التى هى أشبه بأحاجى الأقاصيص ، ومنها تحريم أكل الخس

لأن قديسهم الشيخ عادى مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى لأنه عدو السماء .

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون إلى جبل الدروز كما يحجون إلى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش أو المصحف الأسود ، ولكن الفصل الثالث من كتاب الجلوة يعلمهم أن الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالإلهام من غير سماع .

وليس فيما رواه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم للشيطان لبس جاء من اعتقادهم أن الإله الذى يسمونه « طاووس ملك » نصح لآدم بأكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة فأخرجه طاووس ملك العراء وصعد إلى السماء ولم يكن لآدم مخرج فأرسل إليه طائراً نقر بطنه فاستراح من أكلة الحنطة ، وعاش بعيداً من الجنة المطهرة يأكل هو وبنوه من ذلك الطعام الأرضى إلى يوم القيامة .

فالذين سمعوا أنهم يعبدون « طاووس ملك » الذى أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشيطان وحسبوهم من النحل الشيطانية التى تعبده عبادة الأرباب .

على أننا نعرض النحل الشيطانية جميعاً فلا نرى نحلة منها تعبد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتنزيه والتسليم ، وإنما يقصدون بتلك المراسم التى يسمونها العبادة أن يزدلفوا إليه بالترضية والمداراة ، وأن يتقوا منه الشر الذى لا يقيهم منه رب سواه ، لأنه موكل بحكم الأرض إلى اليوم المعلوم . فهى مصانعة خوف أو نقمة على الخير الذى لا ينالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل أثر واحد يحق لنا أن نطلق عليه اسم العبادة حيث نعنى بالعبادة إيمان الحب والتعظيم والرضى بالفداء والبلاء فى سبيل ذلك الإيمان فليس فى تلك الشعائر كافة علامة على قبول الفداء فى سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصبر عليه إيثاراً لرضى الإله المعبود ولو لم يكن فيه

نعمة أو هبة من هبات الدنيا والآخرة ، وكأنما كانت « عبادة الشـيطان » تهمة جرت على ألسنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضناً عليهم أن يحسبوا فى زمرة « العباد » المؤمنين بالله .

وإذا كان الفـداء شرطاً من شروط العبـادة الخالصة فما من نحلة شـيطانية يتقبل المؤمنون بها أن يخسروا كثيراً أو قليلا فى سـبيل الشيطان ، فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذى لا مهرب منه ، ومثل هذه المساومة لا تسمى بالعبادة إلا من قبيل المجاز والتمثيل .

حلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الإنساني فى التهدى إلى العقائد العميقة التى تعرب عن نظرة شاملة إلى الحياة أو إلى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس فى هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وخياله وبذهنه وحسه وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز فى وعى الإنسان الساذج وملكة التجريد والتعميم فى تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير .

لو قال قائل فى هذا العصر أن الكون كله فكرة ، أو أنه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج فى قوله هذا إلى تعمق بعيد ولا ظهر منه أنه يشتط فى نزعات التصوف أو نزعات التجريد ، لأن الخاصة والعامة فى زماننا يسمعون أن المادة كلها على اختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها إنما هى ذرات تتألف من النواة والكهرب وأن الذرة حين تنشق تؤول إلى شعاع ، وأن الشعاع هزات فى الأثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج فى تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التى كانت عنده وصفاً عاماً لكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية ما يتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف .

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة إذا سمع اليوم أن الكون كله عدد وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الغنى عن التجسيم .

ولكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قبل نيف وعشرين قرناً أن الوجود كله عدد وأن « الكلمة » أصل كل شىء كما قال بعض فلاسفة اليونان نقلا عمن تقدمهم من الكهنة والمفكرين ؟

كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع باللوجس Logos لأول

مرة وحين سمع معها أو قبلها بالنسب الهندسية التى تفرق موجودات الكون المادى كلها فلا تتمخض عن شىء سواها .

كان هذا كلاماً أشبه بالتخريف أو هو التخريف بعينه ، وظل أناس من المطلعين إلى عصر الذرة يسمعونه فلا يصفونه بأكثر من أنه هراء ، ولم يكن قول من الأقوال أبعد فى الشطط عند جمهرة الناس من إحالة هذه الموجودات إلى فكرة خالصة أو إلى عدد لا يعرفون معه ما هو المعدود .

وقد كان حقاً من الإعجاز فى التفكير أن يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرناً أن يشف تلك الشفافية بهذه الأجسام ذات الأوزان والأحجام .

كان إعجازاً لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس إلى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه فى الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد ننظر إلى خطواته القريبة عيانا إذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التضامن فى البديهة الإنسانية بين ملكة التشخيص والرمز وملكة التجريد والتعميم .

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل فى القوى العلوية والسفلية عملها .

كان بتلك الكلمة يبطل الأحجام والأوزان ويجعلها فى يديه كالهواء أو أخف من الهواء ، وكان يلقى الكلمة أو يجمع العدد فيحرك الجبال ويزلزل الأوتاد ويطير بالأجسام وينفذ إلى ما وراء الحجاب ولا يبتعد منه أو يتعسر عليه عسير .

ولم يكن أصحاب العقيدة فى السحر فلاسفة يجردون الأجسام وينظرون من وراءها إلى الحقائق فى العقل الإلهى أو فى عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا أناساً حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمله كل منهم حين يأمر إنساناً مثله فيطيعه ، وغاية ما هنالك أن الساحر يأمر بالكلمة أرواحاً واعية وأن الطبيعة كلها أرواح .

غاية ما هنالك أن الساحر يعرف الكلمة التي تطيعها تلك الأرواح ، وأنه هو — الإنسان الساذج — لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها وزلزل الأوتاد كما يزلزلها ، فلا تعمق عنده ولا تصوف ولا تجريد .

وإلى اليوم يستطيع الإنسان الساذج أن يقول ان الكلمة تفعل الأعاجيب وتحكم الدنيا لأنها تحكم الإنس والجان ، ولكنه يقولها ولا يشعر بعمق فيها ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وإنما « تعمقها » الفلسفة لأنها تعطيها المعنى الذى لا يقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن فى البداهة الإنسانية فعله فلا تبدو هذه النقلة كأنها الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية فى أعلى الدرجات .

ولما فرق الإنسان الساذج بين السحر والعبادة لم يعتمد فى تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذى استخدمه علماء العصر الأخير فى مراجعة العقائد وضم الأشياء منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق أو جليل .

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عامد ولا ملتفت إلى فارق بينهما غير الفارق بين حالته وهو يذهب إلى الساحر وحالته وهو يذهب إلى امامه فى العبادة ، وربما كان الساحر والإمام شخصاً واحداً ولكنه يشعر من نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب اليه طلباً للسحر أو يذهب إليه طلباً للصلاة .

فحينما ذهب إليه يطلب سحرا فهو يحس من نفسه أنه يذهب إليه خفية ويستر عنده ما يطلبه ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن إليه ، وحينما ذهب إليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن ما يفعله وما يرجوه ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام .

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقا أصبح السحر عملا من أعمال الظلام وإن اختلف الأعوان عليه بين الأرواح الخبيثة والأرواح الطيبة ، أو بين الأرواح التى يحكمها الشيطان والأرواح التى لا حكم له عليها ولا يرجع إليه فى تسخيرها .

ومع الزمن ظهر التخصيص فى صناعة السحر كما يظهر فى كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيها المتشابهات والمتخالفات ، فانقسم السحر إلى أبيض وأسود ، وإلى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة أنهم لا يقدرون على صناعتهم التى لا شك فيها ، وإنما فهموا من هذا الوصف أنهم يحتالون فى الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة فى الكذب أو الشعوذة من شيطان .

وبقيت « السرية » شرطاً ملازماً للسحر بنوعيه ، وبقيت هذه السرية معنى مرادفاً لمعنى الظلام وتدبيراً لا يؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أى وجه يكون : بقى الساحر مخيفاً غير مأمون : وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ولعن الكاهن غريمه ولم يستطع غريمه أن يلعنه لأن الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق الساحر وإن لم يكن سحراً من عمل الشيطان .

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة « وأصحاب الجان » جنباً إلى جنب فى أخبار التوراة من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجون الأنبياء لأنهم ينكرون أنهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان إذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعل الملك شاول قبل موت النبي صمويل ، فلما مات النبي بحث عن السحرة الذين نفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصته مع النبي فى محضره ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الأولى التى لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وإن فصلت بينهما فى التجلة والتقديس .

ويقول الإصحاح الثامن والعشرون من كتاب صمويل : « . . ومات صمويل وندبه كل إسرائيل ودفنوه فى الرامة فى مدينته . وكان شاول قد نفى أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاءوا ونزلوا فى شونم ، وجمع شاول جموع إسرائيل ونزل فى جلبوع ، ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسأل الرب فلم يجبه الرب

بالأحلام ولا بالأوريم – أى القرعة الكهنوتية – ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعبيده فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب اليها وأسألها ، فقال له عبيده : هوذا امرأة صاحبة جان فى عين دور ، فتنكر شاول وليس ثياباً أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال لها : أعرفى لى بالجان واصعدى من أقول لك . . فقالت المرأة : هوذا أنت تعلم ما فعل شاول . انه قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض . فما بالك تضع الشرك لنفسى تريد لها الموت ؟ فحلف لها شاول بالإله الحى لا يلحقنها إثم من هذا الأمر ، فسألته المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى لى صمويل صرخت بصوت عظيم وقالت لشاول : لماذا خدعتنى وأنكرت نفسك ؟ قال لها الملك : لا تخافى . ماذا رأيت ؟ فقالت المرأة : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . . ثم قالت : رجل شيخ صاعد مغطى بجبة . فعلم شاول أنه صمويل فخر ساجداً على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذا أقلقتنى باصعادك أياى ؟ قال شاول : قد ضاق بى الأمر غاية الضيق . إن الفلسطينيين يحاربوننى والرب يتخلى عنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، ودعوتك لتعلمنى ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تســألنى وقد تخلى عنك الرب

وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أنبأنى به وتكلم به على يدى ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تستمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه فى عماليق ، فهو صانع بك ما صنعه اليوم وغداً يدفع بك وباسرائيل إلى أيدى الفلسطينيين ، وغداً تلحق بى أنت وبنوك ويدفع الرب إلى الفلسطينيين جيش إسرائيل . فسقط شاول على الأرض وغشية الوجل من قول صمويل ، ولم تكن له قوة لأنه لم يذق طعاماً نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة إلى شاول ورأته مرتاعاً فقالت له : لقد صدعت جاريتك بأمرك ووضعت نفسها فى كفها تلبية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت جاريتك وتأكل من هذا الخبز الذى أضعه أمامك . كل فتكون لك قوة على المسير فى الطريق . فأبى أن يأكل ، وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الأرض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن فى البيت

فأسرعت وذبحته وأخذت دقيقاً وعجنته وخبزت منه فطيراً وقدمته أمام شاول وعبديه ، فأكلوا وذهبوا . . .

هذه القصة كنز من كنوز البحث فى مقارنة الأديان يندر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شـــواهد المرحلة التى يبدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والإمامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهى التمييز إلى حدوده الواضحة .

فهنا هنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الإثنين فى مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول إلى حيث يلحق بصمويل .

وهاهنا تمييز بين الإمامة الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب إليه القدرة على تحضير روح النبى بغير مشيئته .

وهاهنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الأسود ولكن ، الســـاحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان أنهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لأنهم فى خدمة شاول وهو مغضوب عليه .

وهاهنا اسطلاع للغيب يطلب من النبوة كما يطلب من القرعة أو يطلب من صاحبات الجان والأرواح .

غير أن العبريين لم يسبقوا غيرهم فى مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعبادات . فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر فى الحضارة القديمة فانقسم إلى السحر الأبيض والسحر الأسود وإلى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخبث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين وأثرين مختلفين ، فتكلمت الأناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح فى مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه إلى اليوم .

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما بسحر المجوس ويدل عليه اسم « الماجى » Magic الذى بقى فى اللغات الغربية بلفظه القديم .

والسحر الآخـــر يسمى بصناعة الساحرة Witchcraft ويؤخذ من اسمه هذا أنه كان مقصورا على المرأة منذ كانت المرأة فى العرف الشائع أداة فى الغواية وعون الشيطان على كيده وعصيانه .

فقد كان الأقدمون يخلطون بين فتنة المرأة بوحى الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حبالة شيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هى على تسخير المفتونين لأغراضها ومشتهياتها ، ويقع فى أذهانهم أنها أقرب إلى الخلسة والخداع لأنها تعاشر الشـــيطان فى زواج غير مشروع ولا يحسبونه إلا من قبيل السفاح الممنوع ، بل هم يحسبونه شرا من السفاح الممنوع ، لأن الســـفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الإنس لا يبلغ فى العصيان والمنكر مبلغ المعاشرة التى تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله .

وتتميز أدوات السحرين كما يتميز السحران فى المقصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكواكب ورياضة النفس والروائح الزكية من الطيب والبخور .

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والأذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فانه يتوسل إلى مقاصده الخبيثة بكل دنس كريه من الأدوات والآلات ، ويقال عن سحرته أنهم يلوثون كل طهر ويبتذلون كل قداسة ، وأنهم يدنسون اللبن والكتب الشريفة ويتقربون إلى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات محل الحطة والهوان ، ويزعمون أن الضوء الشيطانى أيسر للمرأة من الرجل لأنها تستخدم فيه الدم المطرود ، ويتعمدون التشنيع والتنفير جهدهم من التخييل فيزعمون أن الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهى تمتطى المكنسة

المتسخة ، لأنهم لا يريدون أن يسلموا لها القدرة على الطيران إلا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى أداة من أدوات الأوساخ والأرجاس .

* * *

ومن أصول السحر ، فى عصور الحضـــارة الأولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب فى وقت واحد .

كان التنجيم أصلا من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الإمام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الأفلاك وسريان مشيئتها فى الأرضين ومن عليها ، فكان الكاهن إماماً يصلى لها وعالما يعرف حسابها وساحراً يستطلع أسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التى يستنبىء عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها .

وبقى التنجيم أصلا من أصول السحر بعد زوال عبادة الأفلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه الربوبية لم يبطل القول بسلطان الأفلاك وتأثيرها بأمر الله فى العوالم السفلية ، واختلف المتدينون فى مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوى فى كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، إذ ينقل آراء المختلفين فيقول : « إن الذى اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم إنما هو القول بألوهية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير فى هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه فى جميع الملل والأديان . لأن الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذى بيده التأثير وتدبير الكائنات إنما هو إله واحد واجب الوجود متصف بصفات الألوهية والربوبية وإن كل ما عداه حادث مفتقر إليه على الدوام لا يستقل بنفسه فى شىء من الأشياء ولو لحظة واحدة وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة فى العالم باذنه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلا ومثلوا ذلك بملك يولى شخصاً بقطر من الأقطار فيفوض له الأمر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمضى الأحكام فى ذلك القطر بإذن ذلك الملك بحيث لو لم يرد ذلك

منه لعزله عن تلك الولاية — فهذا القول قد قاله جميع المليين ومنها إمام الحرمين ولم يرتضه السنوسى بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم إلى حد الكفر . وأما من يقول إنها أسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم فى سائر الأسباب العادية من الأكل والشرب والقطع والإحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد . . .

إلى أن يقول : « وثانى الشيئين المذكورين إثبات القوابل السفلية الأرضية ، لأنهم قالوا إن حصول الفاعل المؤثر لا يكفى وحده فى حصول الأثر بل لابد معه من حصول القابل ولا يكفى أيضاً حصول القابل وحده بل لابد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة والموانع زائلة ، لأنه ربما حلت فى العالم الأعلى شكل غريب صالح لإفادة آثار غريبة فى مادة العالم الأسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثار لعدم الشرط أو لوجود المانع . . فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ومعرفة طبيعة الأمور المعتبرة فى كون المادة السفلية قابلة لذلك الأثر ، لكان يمكننا أن نهيء تلك المادة لقبول ذلك الأثر .. » .

وعلى هذا التأويل بقى سحر التنجيم بعيداً من شبهة الإتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر فى كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ الشيطان فى هذه الصناعة لقدرته على الصمود والهبوط بين الأفلاك والعوالم السفلية وعرفانه بخفايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيؤ أحوالها للتأثر والانفعال بما فوقها .

وقد أورد صاحب الكتاب المتقدم أقوالا مختلفة فى التعريف بما سماه علم السحر فقال : « . . اعلم أنهم اختلفوا فى تعريفه لاختلاف المذاهب فيه ، فعرفه صاحب أرشاد القاصد بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية ، وعرفه ابن العربى الفقيه المالكى بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل وتنسب إليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بأنه ما يغير الطبع ويقلب الشىء عن حقيقته . . ومنفعته

عند الإسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا ليعمل به ، ولا نزاع فى تحريم العمل به بتا ، وأما مجرد تعلمه ففيه خلاف بين الأئمة ، فبعضهم منعوه وحرموه حسما للباب كالمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأغرب بعض النظار حيث عدوه من فروض الكفايات لجواز ظهور ساحر يدعى النبوة فيكون فى الأمة من يكشفه ويقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد فى إرشاد القاصد . . ولتعلمه فائدة أخرى وهى أن يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصاصاً عند من يقول بذلك » .

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « إنه حقيقى وغير حقيقى . . وأن الطرق فيه اختلفت على أربعة مذاهب : أحدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهى طريقة أهل الهند ، لأنهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية إنما تصدر عن النفس الناطقة ولذلك يلازمون الرياضات الشاقة حتى تصفو نفوسهم وتتجرد عن جميع الشواغل البدنية بحسب الطاقة البشرية . . وهذا المذهب مبنى على ثبوت التأثير لتوجيه النفس وتعليق الوهم . . والمذهب الثانى من المذاهب الأربعة التى للسحر ، طريقة النبط وهى عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة إلى رقية ودخنة بعزيمة نافذة فى وقت مختار ، وتلك الأشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات وتارة تصاوير ونقوشاً كالشعابيذ وتارة عقدا تعقد وينفث فيها وتارة كتبا تكتب وتدفن فى الأرض أو تطرح فى الماء أو تعلق فى الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقية التى يرقى بها تضرع إلى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب على زعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم أن هذه الآثار إنما تصدر عن أجرام الكواكب ، وكتاب سحر النبط نقل ابن وحشية يشتمل على تلك الطريقة . . والمذهب الثالث من المذاهب الأربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والأفلاك واستنزال قواها بالوقوف والتضرع إليها لاعتقادهم أن هذه الآثار إنما تصدر عن روحانية الأفلاك والكواكب لا عن أجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثانى وأهل الطلسمات . . والمذهب الرابع من المذاهب الأربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعانى

كأنها أقسام وعزائم بترتيب خاص كأنهم يخاطبون بها حاضراً لاعتقادهم أن هذه الآثار إنما تصدر عن الجن ويدعون فى تلك الأقسام أنها تسخر ملائكة قاهرة للجن » .

وقد أورد الأوغنستانى فى رسالة اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان ، أمثلة فى الآيات وجملة إعدادها بحروف الجمل وتقسيمات هذه الآيات والإعداد إلى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ليعود هؤلاء فيسخروا الطبيعة والناس ، فى زعم أصحاب هذه الأرصاد .

* * *

والمفهوم من مؤلفات الأوربيين فى السحر والطلاسم أنهم نقلوا جميع النفسيات واقتدوا بالشرقيين فى الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكباً راعياً للسحر كأنه خليط من الرب اليونانى القديم والشيطان ، وجعلوه ولياً للشطار والخبثاء وأدعياء النظم وأصحاب الخداع باللسن والخطـابة ، وانتهى بهم الأمر إلى تحريم هذه المعارف السحرية جميعاً وتقسيم المعارف كافة إلى قسمين : قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ما عداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتجارب العلوم الحديثة ، فدخل فى عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن — كذلك — كل سحر يزعم أصحابه أنه من العزائم التى يستعينون فيها بالملائكة ، فقد شاع فى تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال الملائكة والأرواح العلوية كما قال بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الثانية « لأن هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك النور ، فليس عظيما إن كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر » .

واحترز أحبار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب إلى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء الغيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما إليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالموت إذا ثبت

أن الساحر استخدم طلاسم لإهلاك المسحور ، ثم صدر فى انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بالموت على كل من يثبت عليه تعاطى السحر ولو للعلاج وشفاء الأمراض ، لأنه محالفة مع الشيطان وكل محالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذا معدودة من البلاد التى تخضع كل الخضوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل فى القارة الأوروبية حيث أحرقت النساء عقابا على السحر وأحرق الأطفال لأنهم من ولد الشياطين ، وصدرت آخر هذه الأحكام فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر فى الولايات المتحدة .

وانتهى القرن الثامن عشر والرأى الغالب على أهل الغرب أن السحرة جميعا حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التى يقرها الدينيون .

الشيطان والفنون

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وربما كان أبو العلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه في الواقع قول يعم جميع الأقوام ويعم جميع أنواع الإحسان فى الكلام فى غير الكلام .

فالعبقرية عند الأوروبيين منسوبة إلى الجن ، ومعنى العبقرى عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة فى القدرة والتفوق كائنا ما كان العمل الذى يتفوق فيه ، وكلمة « جينياس » Ginius تطلق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف فى الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها فى الشعر والنثر أو فى التصوير والنحت أو فى الانشاء والتلحين أو فى العلم أو الصناعة أو تدبير المال وسياسة الشعوب .

والعبقرية فى التعبير العربى الحديث مأخوذة من كلمة عبقر ، موضع يقولون أن الجن تسكنه وأن الصناعات الفائقة كلها تنسب إليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال امرؤ القيس :

كأن صليل المرو حين تطيره
صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

ويقولون أن سكانه أنفسهم موصوفون بالجمال كما قال الأعشى : « كهولا وشبانا كجنة عبقر » .

ويرد بعضهم أن الكلمة ماخوذة من الكلمة الفارسية « آبكار » بمعنى الرونق ، وهو بعيد لأن اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ولا يوجد فى الأصل الفارسى ما يوحى بهذه

القصة أو يوحى بأسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور فى هذه المقتبسات .

وتذكر كلمة « عبقرى » وصفا للنفاسة بغير نظر إلى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء فى سورة الرحمن من القرآن : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » .

* * *

ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الإبداع بالاعجاز ووصف الاعجاز تارة بالدقة التى تخفى أسرارها على غير ذوى الفطنة ، وتارة بالفخامة التى تتعاظم العاملين من غير ذوى العزم والقدرة الخارقة .

يقال ذلك فى البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة إلى الخبايا والأعماق .

ويقال ذلك فى المساعى الكبار التى يضطلع بها المردة الجبارون ولا يقوى على الاضطلاع بها من دونهم من ذوى الأجسام المحسوسة .

وحيث تسرى الخواطر إلى تصور الخفاء والدقة والقدرة الخارقة لا جرم تنتهى بمسراها إلى العوالم الخفية التى لا ترى بالعيون ولا تحد قدرتها بما يحد الأيدى والأقدام من أجسام بنى آدم وحواء .

ولهذا الاستطراد الطبيعى فى تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن بل على علاقة كل « بالغ » من الأقوال والأعمال بتلك الخلائق المستترة التى لا تحدها نقائص اللحم والدم ، لأنها متلبسة فى الأذهان بخلقة النار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال بينه وبين مسعاه .

والعرب تزعم أن شعراءها تستوحى الجن وأن كل شاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه . فهبيد اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الأعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن ، وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق أن الشعر منقسم بين شيطانين احدهما يسمى الهوجل

وهو موكل بالجيد من الشعر والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئه وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر المحمود نائله   كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك وقال : إنهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوجل فى أوله فأجدت وخالطت الهوبر فى آخره فأفسدت .

وكان أبو النجم الرجاز يفخر على الشعراء ويقول إن شياطينهم جميعا أناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

انى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وكأنه نظر فى ذلك إلى فحولة الكلام ، مما اشتهر به الرجز ولم يشتهر به الشعر فى زمانه .

ويكون مع الشيطان تابع أو « رئى » كأنه الراوية الذى يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عفو الخاطر .

وفى كتاب « آكام المرجان فى أحكام الجان » نظم كثير منسوب إلى الجن بغير واسطة الإنس أو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك :

قال بعد عنعنة طويلة : « ... خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادى عوف فعرسنا به فاستيقظت فى بعض الليل فاذا أنا بقائل يقول :

ألا ملك النساك غيث بنى فهر
وذو الباع والمجد التليد وذو الفخر

فقلت فى نفسى والله لأجيبنه فقلت :

ألا أيها الناعى أخا الجود والفخر
من المرء تنعاه لنا من بنى فهر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمــرو أخا الندى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهر

فقلت :

لعمرى لقــد نوهت بالسيد الذى
له الفضل معروفا على ولد النضر

فقال :

مررت بنسوان يخمشن أوجهــا
صــاحا عليه بين زمزم والحجر

فقلت :

متى ؟ ان عهدى فيه منــذ عروبة
وتسعة أيام اغــرة ذا الشهــر

فقال :

ثوى منــذ أيام ثــلاث كوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هذا هاتف ينعى ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقى أحد بشرف أو عزة أو كثرة مال لبقى عبد الرحمن بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الأيام لا تبقى عــزيزا لعزته ولا تبقى ذليــــلا

فقلت :

ولا تبقى من الثقلــين ثقــلا
ولا تبقى الحزون ولا السهــــولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة إلى قول حسان بن ثابت فى المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجنى :

ولى صاحب من بنى الشيطا ن فطورا أقول وطورا هــوه

وقد روى صاحب آكام المرجان أبياتا كثيرة من نظم الجن فى رثاء عظماء الصحابة وآل النبى ، منها ما نسب إلى الجن منفردين به ومنها ما اشترك فيه قائلان كالأبيات التى رويت فى رثاء ابن جدعان .

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشاعرين أنهما يأخذان من شيطان واحد . فذكر صاحب مواسم الأدب أن الفرزدق وجريرا ركبا ناقة إلى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير فى بعض الطريق .. فتلفتت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتى
وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى
من الادلاج والدبر الدوامى

ثم قال فى نفسه : الآن يجىء ابن المراغة فيسمع ما أنشدته فيه فيجيبنى بقوله :

تلفت أنها تحت ابن قين
أبى الكيرين والفاس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها
كخزيك فى المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وأنشده البيتين الأولين فلم ينشب أن أنشده البيتين الأخيرين ، فضحك الفرزدق وقال : والله يا أبا حرزة لقد قلتهما قبل أن تأتى . قال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الأصل فيه قائم على اعتقاد طبيعى شائع يخيل إلى الناس فى شتى الأمم أن المعانى الخفية لا تخلو من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وأن أسرار الصناعات التى تدق عن نظر العيون ينبغى أن تطلع عليها العيون التى تعيش فى عالم الأسرار ولا يدق عن نظرها شىء فى حلكة الظلام .

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن الغريض ، وبخاصة فى الزمن الذى كان فيه الغناء موقوفا على البيت أو الأبيات يختارها المغنى من كلام الشاعر فى عصره أو فى غير عصره .

روى صاحب الأغانى أن الغريض كان يقتبس بعض أصواته من عزيف الجن ويزعم ذلك مغالاة بصنعته ، فأنكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغنى لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفا عجيبا ذعرن منه فقال لهن الغريض : أن فى هذه الأصوات صوتا إذا نمت سمعته وأصبحت فغنيت به ، وأصغين إلى الصوت فاذا هو نغمة من نغمة ألحان الغريض .

وأدعى اسحق بن ابراهيم الموصلى أن الغناء الماخورى الذى افتتن به الناس من فن أبيه إنما كان من صنع إبليس .. قال عن أبيه : « استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من أيام الجمعة أنفرد فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت ... فأقمت بمنزلى وأخذت فى إصلاح طعامى وشرابى وأمرت البواب ألا يأذن لأحد فى الدخول على ، فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى إذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار ... فدخلنى غيظ عظيم لدخوله على وهممت بطرد بوابى .. فسلم علىّ أحسن سلام فرددته عليه ودعوته إلى الجلوس فجلس وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب فظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله علىّ لأدبه وظرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ فقال : لا حاجة لى فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك إليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحاق . هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ... فغاظنى قوله ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : أحسنت يا ابراهيم ! .. فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير إذن واقترحه على حتى سمانى باسمى ولم يجمل مخاطبتى . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ، فتعجبت فى نفسى وقلت : بم يكافئنى ؟

ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياما كافيا لقوله لى أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدى ! ثم قال : أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شأنك ! واستضعفت عقله أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى ، فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلت العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحـــة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح

إلى آخر الأبيات ..

« فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته ، حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى من اللذة التى غيبتنى عن الوجود ، فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغنى بهذه الأبيات :

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة
فانى إلى أصـــواتكن حـــزين

إلى آخر الأبيات ..

فكاد عقلى أن يذهب طربا ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

إلى آخرها ..

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك . فقلت : أعده على . فقال : لست بمحتاج . قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين عينى . فارتعدت لذلك ، وقمت إلى السيف فجردته وغدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شىء سمعتن عندى ؟ فقلن : سمعنا أحسن غناء ، لم نسمع قط أحسن

منه ، فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحد ... فرجعت لاتأمل أمرى فاذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحاق ! أنا أبو مرة ابليس ... وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع ... فركبت إلى الرشيد وأخبرته بالحديث ، فقال : ويحك . أعد الأصوات التى أخذتها . فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى .. » .

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمه الشعراء الإسلاميون ، كذى الرمة حيث يقول :

ورمـــل كعزف الجن فى عقداته
هرير كتضراب المغنـــين بالطبـــل

غير أنهم خصوا الشاعر بالشيطان الملازم ولم يجعلوا للمغنى شيطانا مثله لأن فن الشعر كان أقدم عندهم من فن الغناء ، وإنما كان غناؤهم حداء أو محاكاة للحداء ، وكان الحداء نغما شائعا يغنيه كل سائق يحدو الإبل فلى طريقة لا محل فيها للافتتان والتنويع ، وكان غناؤه على الأكثر فى قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن أنه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمع منها ، فلما ظهر المغنون آحادا منقطعين لعملهم منفردين بوضع ألحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالأخذ عن الجن فى صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الإنس فى هذه الصناعة ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتأصلوا فيها كما تأصل الشعراء فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن إجماعا من وحى البديهة فى البيئة بأسرها .

* * *

وقد روى عن الصناعات العلمية كالطب ما روى عن صناعة الكلام وصناعة الغناء . فأسند صاحب كتاب الهواتف إلى النضر بن عمرو الحارثى قصة قال فيها :

« إنا كنا فى الجاهلية إلى جانبنا غدير فأرسلت ابنتى بصحيفة لتأتينى بماء فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها .. قال : والله إنى جالس ذات

ليلة بفناء مظلتى إذ طلع على شيخ فلما دنا منى إذا بنتى . قلت : ابنتى ؟ قالت : نعم ابنتك . قلت : أين كنت أرى بنية ؟ قالت : أرأيت ليلة بعثتنى إلى الغدير أخذنى جنى فاستطار بى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهدا إن ظفر بهم أن يردنى عليك ، فظفر بهم فردنى عليك .. فاذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كان الجنى جعل بينه وبينها أمارة إذا رابها ريب أن تدخن له ، وان ابن عمها ذاك عيب عليها وقال : جنية شيطانة . ما أنت بإنسية . فدخنت فناداه مناد : مالك ولهذه ؟ لو كنت تقدمت إليك لفقأت عينك ، رعيتها فى الجاهلية بحسبى وفى الإسلام بدينى .. فقال له الرجل : ألا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال : ليس لنا ذاك . إن أبانا سأل لنا ثلاثا : أن نرى ولا نرى ، وأن نكون بين أطباق الثرى ، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى . فقال ابن عمها : ألا تصف لى دواء حمى الربيع ؟ قال بلى . قال : ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت ؟ قال بلى ! قال : فخذاها ثم أشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل . قال : فكأنما نشط من عقال . فقال الرجل يا هذا ألا تصف لنا من رجل يريد ما تريده النساء ؟ قال : هل ألمت به الرجل ؟ قال : نعم . قال : لو لم يفعل وصفت لك .. » .

وجاء فى كتاب آكام المرجان بعد نقل هذه القصة جملة أخبار من قبيلها يتلقى فيها الإنس عن الجن علما من علوم الطب لعلاج بعض الأمراض ومنها ، أمراض لها فى عرف الأقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال وبعض هذا العلاج دواء وبعضه من الرقى والتمائم التى تدخل فى طب السحر والكهانة .

وما من صناعة بلغت مبلغ الاعجاز فى رأى قوم إلا كان لها تفسير من معونة الجن أو المردة ، ويرجعون فى هذا التفسير إلى الخبر المنقول كما يرجعون إلى المجاز والتخييل . فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونساك البيع قبل الإسلام قول النابغة عن معابد بعلبك أو تدمر .

الا سليمان إذ قال الإله له
قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أنى قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وجاراه البعيث فى قوله :

بنى زياد لذكر الله مصنعة
من الحجارة لم يعمل بها الطين
كأنها غير أن الإنس ترفعها
مما بنت لسليمان الشياطين

والبحترى يصف ديوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصنع انس لجن
سكنوه أم صنع جن لانس

فهو هنا يرى بناء فخما مهجورا يصح أن يكون من صنعة الإنس للجن لأنه خراب موحش كمساكن الجان ، ويصح أن يكون من صنعة الجن للإنس لأنه فيما هاله من فخامته أكبر مما تبلغه طاقة الإنسان .

* * *

ولا يفهم القول بسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحا إلا مع التفرقة الواجبة بين نوعين من التسخير ينبغى ألا يلتبس أحدهما بالآخر فى هذا المقام .

فالتسخير الذى يشمل بنى آدم جميعا ويشمل القوى والعناصر جميعا غير التسخير الذى يأتى فلتة من حين إلى حين بالحيلة التى يحتالها الشيطان أو يحتالها الإنسان ، ولا تبلغ بحال من الأحوال أن تساق مساق التعميم فى الكلام على خلق الأحياء وخلق السموات والأرضين .

فمن التسخير الذى يجرى مجرى النواميس الكونية قوله تعالى فى القرآن الكريم : « **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار** ،

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه » .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره » .

وقوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

وقوله تعالى عن داود وسليمان : « وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره » .

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والإنس والحيوان إلا بهذا المعنى ، ومنه ما جاء عن تسخيرها لسليمان « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » .

ومنه : « والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد » .

فهذا التسخير الذى يفهم منه أن الإنسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما فى الأرض ، إنما يجرى مجرى النواميس الكونية على عمومها ، ولا يخص به إنسان من الناس إلا كما يخص بعلم ببناء السفن وصوغ الحديد واستخدام الريح بأمر من الله فى غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الإنسان .

وليس من قبيل هذا التسخير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسى والشياطين .

فذاك تسخير تجرى فيه إرادة الله و قدرة الإنسان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد فى النواميس الكونية التى يعلمها من يقدر على علمها .

أما التسخير المقصود بالسحر وما إليه فهو إلى خرق النواميس أقرب منه إلى مجاراتها والعمل بإرادة الله فيها ، وإنما تخرق فيه هذه النواميس بثمن

يبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة والمروق عن مجرى الأمور .

* * *

ونعود إلى عمل الشيطان فى الفنون فنلاحظ أن ملكة الخيال تتقارب فى رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من إنسان واحد ، يتخيل الشىء الواحد فى أوقات مختلفات .

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان — ومن نقل عنهم — يتحدثون عن جنيات الفنون التى اصطلحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلبها بذلك نسبتها إلى الجان . وقد قيل عن سقراط أنه كان يستمع وحى الحكمة من جنى أو شيطان كأنه يستمع إلى صوت صديق من الإنس يحاوره ويناجيه .

وقصة الموصلى مع إبليس لها نظير من قصة الموسيقى الإيطالى جيوسبى ترتيانى فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد الأديرة فجاءه الشيطان فى المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحنا أذهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه إبليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان .

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح فى الشرق يضارعهم فى اليونان جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان » .

والأطباء فى القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة فى صلواتهم ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التى يزيفونها باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمنا لما يخدعونهم به من مظاهر الشفاء وباطن الهلاك والبوار .

* * *

والحكم على شياطين الفنون من الوجهة الدينية متقارب فى المشرق والمغرب .

فالغالب على شياطين الفنون أنها شياطين قدرة وإبداع وليست بشياطين غواية وإفساد .

ولكن الفنون قد تستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وإبراز معانى الجمال ، وكان جرير يفخر بشعره فيقول إنه من رقى الشيطان ويمدح الرجل الصالح فيقول ما معناه أن الله عصمه من رقاه .

رأيت رقى الشيطـــان لا تستفزه
وقد كان شيطانى من الجـــن راقيا

فاذا كان الفن من آلات الإصلاح والفطنة فشيطانه من شياطين القدرة والجمال ، وإذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من جند إبليس ، وقد قال الإمام ابن الجوزى فى فصل من كتابه « تلبيس إبليس » وحرم فى نهايته غناء التطريب واللهو .. قال فى أوله : « وفصل الخطاب أن نقول ينبغى أن ينظر فى ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج فى الطرقات فان أقواما من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون فى الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع إنشادهم بطبل فسماع تلك الأشعار مباح وليس إنشادها إياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفى معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون أشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفى معنى هذا إنشاد المبارزين للقتال أشعار التفاخر عند النزال ، وفى معنى هذا أشعار الحداة .. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة إلى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال : إن حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت إليكم ... وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له أنجشه يحدو فتعنق الإبل . فقال رسول الله : يا أنجشة رويدك ! رفقا بالقوارير . وفى حديث سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله إلى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر ابن الأكوع : ألا تسمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول :

لا هم لولا أنت ما اهتدينـــا ولا تصدقنـــا ولا صلينـــا
فألقين سكينـــة علينـــا وثبت الأقدام إذ لاقينـــا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هذا السائق؟ قالوا عامر ابن الأكوع ، فقال يرحمه الله .. » .

ولنذكر مع كلام الإمام ابن الجوزى أنه ألف كتابه للكشف عن تلبيس إبليس فلم يدع طائفة إلا كشف منها لونا من ألوان هذا التلبيس ، ولم يستثن الحكماء والفلاسفة والمتصوفة والنساك ، فما بالك بأصحاب الفنون وقالة الشعر ومنشدى الغناء .

شياطين الشعراء والكتّاب

يغلب أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقا لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقا شعريا فهو مخلوق خيالى أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الجاهليات الغابرة له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان فى نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكلها تتوخى السجع والقافية وتخالف كلام الساحر أو الكاهن فى سائر أقواله ، ليصبح القول فيها أنها من وحى غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر إلى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول . ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم .

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصوير كل كائن غير منظور ولو لم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين والصور التى يدركها الفكر وتلم بها يكن من خلق الشاعر . وشيطان الأديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم أحلام اليقظة . وندر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان ، وقد صنع له المثالون الغربيون تماثيل على صورة الإنسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء ، وجاء فى الشعر العربى ما يصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الأعراب فى رواية الخليل بن أحمد :

وحافر العـــير فى ساق خدلجـــة
وجفن عين خلاف الإنس فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال إنسانى منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الخلقة لمجرد المخالفة بينه وبين الملامح الإنسانية ، ومن ذاك وضع العين بالطول وتخيله بعين واحدة فى وسط جبهته ، إلى أشباه ذلك من التشويه المقصود لمجاراة الخيال فى استلزام المخالفة

بين منظر الإنسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر الفرس — السعدى الشيرازى — للشيطان الذى رآه فى الحلم . فقد رآه « بقامة كفرع البانة وعينين كأعين الحور وطلعة كأنها تضىء بأشعة النعيم » .. ولما علم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم البغيض بهذه الوسامة المحبوبة ، وسأله فلاحت على طلعته كبرياؤها وقال : « لا تصدق يا صاح أنه مثالى ذاك الذى رأيتهم يمثلونه . فان الريشة التى ترسمنى تجرى بها يد عدو حسود . سلبتهم السماء فسلبونى الجمال .. » .

ولا يعنينا فى هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التى اخترعها الشعراء والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر ، ولكننا نجمع هنا بعض أوصافه التى تقع فى روع المتخيل أو تعرض للفهم عن تفكير واستنباط ، وليست هذه الأوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة فى جوهرها ، وليس فيها من ابتداع إلا والمنطق يوحى به لزاما فى أوصاف الشياطين على إجمالها ، وإنما الجديد فيها قدرة الشاعر على إبراز « الشخصيات » وتلوينها بألوانها الخلقية ، وكل هذه الشياطين التى جاءت « مشخصة » فى أقوال شعراء الغرب قريب من قريب .

وليس أشهر فى « الشخصيات » الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتى وملتون وبليك وكاردوتشى ، من شعراء القرن السادس عشر فما بعده . فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مسحة مسرحية من فنهم ، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت ، ولم يرد شيطان كاردوتشى فى قصة مسرحية ولكنه مثله على مثال الشخصيات السياسية التى تقوم ببعض الأدوار على مسرح الحوادث .

وولد كريسفور مارلو Christopher Marilowe الشاعر الإنجليزى فى سنة ١٥٦٤ وظهرت فى حياته قصة الساحر فوستوس بالألمانية ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش إلى المتعة والسطوة لم يجد بغيته منهما فى العلم والفقه فأقبل على كتب السحر الأسود يلتمس منه القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع وعشرين سنة فى المتعة التى يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها إلى الجحيم .

ويجرى الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتى :

مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالجحيم وليوسيفر أن أنجز جميع الوعود التى اتفقنا عليها .

فوستوس : إذن دعنى أقرأها على الشرائط التالية :

أن يكون فوستوس روحا فى الصورة والهيولى .

وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره .

وأن مفستوفليس يجيبه إلى كل طلب ويحضر له كل مطلوب .

وأن يكون فى بيته أو مكتبه غير منظور .

وأن يظهر لجون فوستوس فى كل وقت كما يجب .

وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهذا الجزاء ، أضع جسدى وروحى بين يدى ليوسيفر أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض له بعد أربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المسجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس حيث كان وأن يحملوه جسدا وروحا ولحما ودما ومالا ومتاعا إلى حيث يقيمون .

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر بدلا من المداد .

ويظهر مفستوفليس فى الرواية باسم ملك السوء حينا وباسم الشيطان أو باسمه المشهور فى أكثر الأحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشياطين مرءوس لإبليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعلزبول ، ومن مرءوسيه سبعة شياطين مأمرين هم : شيطان الكبرياء ، وشيطان الطمع ، وشيطان الغضب ، وشيطان الحسد ، وشيطان الشهوة ، وشيطان الكسل ، وشيطان الدعارة .

ويقضى الدكتور فوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من حسان الدنيا وحسان التاريخ ، ومنهن « هيلينا » التى فتنت اليونان الأقدمين و « باريس » التى نالت الجائزة قديما فى مباراة الجمال .

ويغلب على ليوسيفر – كما صوره مارلو – أنه يضع الأمور فى

مواضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما تجب ، فهو ييئس الساحر الغالم من سعى السيد المسيح فى خلاصه وينبئه أنه عاجز عن إنقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز إلى غلبته ورجحان الشر على الخير فى حوله وحيلته ، بل يرده إلى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلا للنجاة ، ولا ينكر الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه — على حكم العهد — فى تقييد يدى الساحر فلا يقدر على رفعها إلى السماء ، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء .

* * *

ويأتى ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) بعد مارلو بفترة وجيزة فى التاريخ الزمنى ، ولكن الشيطان الذى صوره ملتون أهم من الشياطين « الشعرية » التى صورها من سبقوه ولحقوه فى هذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التى تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الأدب والبلاغة ، ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والأحداث السياسية ، ودراسة الأطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تتراءى أحيانا على نحو يوافقها كما تتراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها .

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتينى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كروموبل الذى قاد الثورة على الملك شارل الأول ، وقد عمى فى أواخر أيامه وشمت به شارل الثانى فقال له : ألا ترى يامستر ملتون أن الله عاقبك بفقد بصرك على ما كتبته فى أبى ؟ وكان ملتون مشهورا بسرعة الجواب ، وأجوبة فى قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع إلى الجواب قائلا : وعلى أى ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون لم يبدع قصيدته كل الإبداع ، بل استعار من جليوم دى بارتاس Bartas (١٥٧٨) فى قصيدته أسبوع الخليقة ، واستعار من افيتوس Avitus فى قصيدته عن الخليقة والسقوط والنفى من الفردوس ،

واستعار من القصص الشعبي الذى كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا نسيت أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات المنوعة التي أشرنا إليها .

يقول الشاعر دريدن أن الشيطان هو بطل ملحمة « الفردوس المفقود » دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الأدبيون رأى دريدن فى هذه الملاحظة ، فان ملتون قد حول التفات القراء إلى الشيطان بما ألقاه على لسانه وما شرحه من مزاعمه ومواقفه . وهو لا يعفيه من الذم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التى يذمه بها ويستنكر بها فعاله إنما تأتى مجازاة للعرف الشائع الذى يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الأعمال والأقول التى ينسبها إليه أو يضعها على لسانه بروزا قويا موفور النصيب من عناية الشاعر وإعجابه ، وسر — مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين — أنه كان ثائرا ووجد فى تمرد الشيطان فرصة للإفصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان فى قصيدة ملتون أنه يمثل شارل الأول فى بعض الخلال كما يمثل كرومويل فى حالات أخرى . غير أنه كان يمثل شارل الأول فى الخلال التى يعيبها الشاعر ويضيفها إلى خبائث الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل فى الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفى مجموعة تلك الخلائق التى جعلته يطلب المكان الأول فى جهنم ولا يقنع بالمكان الثانى فى السماء .

ويلقى ملتون على لسان الشيطان أنه يرثى للملائكة الذين يحاربونه فى صف الإله وهو الذى غضب لهم وأنف من المهانة التى تلحقهم بتفضيل بنى آدم عليهم ، وأنه لولا صواعق السماء لما طمعت جنود السماء فى الغلبة عليه . وتخيل ملتون شيطانه فى بعض مواقفه فانه سلطان شرقى يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، وتخيله فى أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذى يؤسف على هزيمته ولا تراد له إلا لأنه قضاء لا مرد له من الله . وقد تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف إلا صورة واحدة تثبت له فى جميع مواقفه ، وهى الصورة التى ترضى الشاعر حين

يتخذه لسانا ناطقا بحجج المتمردين وحين يتخذه شبحا يحمله أوزار الطغاة وذوى الجبروت ، فان ملتون هو ملتون فى الحالتين ، وان بدا الشيطان فى صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين .

ولعل القول الأصح أن الاختلاف بينهما إنما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفرق بين كروموبل وشارل الأول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما فى الطبائع الشخصية لا يتقابلان هذا التقابل على طرفى الميدان ، بل يتقاربان تقارب الأشباه والنظراء .

* * *

وفى هذه الأسطر محل لأديب من معاصرى ملتون يقتحمه اقتحاما بحكم المعاصرة والاشتراك فى الحرب الأهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له إلى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة ، ونعنى بهذا الأديب جون بنيان Bunyan مؤلف رحلة الحاج والحرب التى شنها شداى على إبليس . وإبليسه غاصب محتل لمدينة الروح الإنسانية يحاصره عمانويل ابن بانى المدينة شداى — اسم من أسماء الله عند العبريين — ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتغلغل فيها إبليس وجنوده بالمكر والدسيسة ويستردها جميعا ما عدا قلعتها المحصنة وهى ضمير الإنسان المؤمن بكفارة الخلاص .

* * *

أما الشيطان الذى يلى شخصية إبليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فوست التى ألفها شاعر الألمان الأكبر جيتى (١٧٤٩ — ١٨٣٢) وجعل فيها للشيطان مفستوفليس دورا بين الأرض والسماء وبين الخالق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية مارلو . فان مفستوفليس فى رواية جيتى هو بعلزبوب نفسه وليس زميلا له أو تلميذا من تلاميذه ، ودوره فى هذه الرواية يعم ظواهر الوجود كله ولا تحده المهمة التى يندبه لها فوست وأمثاله .

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لا تفتأ تصنع الخير » .

ويصف نفسه مرة أخرى بأنه القوة النافية التى تقول « لا » أمام كل إيجاب .

ويوصف فى جميع الأحوال كأنه المفسد الذى يتخلل مفاتيح المعزف بالزوائد والعوائق كلما انتظمت عليها نغمة من نغمات النظام .

ويقول مفستوفليس للدكتور فوست أن الوجود كله عبث وأنه كان من الخير ألا يوجد . فيقول فوست : والآن علمت ما تريد .. إنك لم تستطع أن تعدمه جملة فأنت تشيع العدم فيه بالتجزئة أو تبيعه بالمفرق !

وقد وضعت قصة فوست على غرار قصة أيوب فى العهد القديم ، وظهر الشيطان فى أولها يقول لله أنك خلقت العقل للإنسان تميزه على البهائم ، ولكنه يستخدمه ليصبح دونها فى الشر والجهالة ، وانى لا أبالى أن أشقى بنى آدم فانهم متكفلون دونى باشقاء أنفسهم . ثم يقع الرهان على روح العالم فوست الذى يئس من البحث والعلم وآب إلى البؤسى التى يستطعم معها مذاقا للحياة ، فيتفق الشيطان والعالم على شروط كالشروط التى تقدمت فى رواية مارلو ، ويأخذه الشيطان إلى وكر الساحرة لتعيده باشرافه — أى إشراف الشيطان — إلى الشباب . فيعاف العالم ذلك الوكر ويسأل مفستوفليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتجديد الشباب ؟ فيجيبه مفستوفليس : بلى ! هناك وسيلة أهديك إليها .. تذهب إلى الغيط وتحرث وتكرث وتأكل اللقمة التى تجدها وتحصر الحياة فى أضيق حدودها وتأتى عليك الثمانون وأنت فى غرارة الشباب .

قال فوست : لست بهذا ... قال مفستوفليس : إذن لا مناص من السحر والساحرة ، وسأله فوست : ولم الساحرة ؟ فأجابه الشيطان : انها صناعة صبر طويل لا أطيقه ، ولا بد لكل صناعة من أحكام .

وتبدأ الغواية برؤية الفتاة مرجريت عائدة من كرسى الاعتراف فيشتهيها فوست ويروضها له الشيطان ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام أمها بجرعة مخدرة ، فتموت الأم بالجرعة وتحمل مرجريت ثم تلد فتقتل وليدها ،

وفى خلال ذلك يأتى أخوها الجندى فيطلع على سر هذه الفاجعة ويذهب إلى فوست ليقتله فيقتله فوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود إلى مرجريت ويعلم أنها سجينة وييسر لها وسائل الخلاص من السجن فتأبى وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها إلى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت . وتهتف الملائكة : لقد نجحت باذن الله !

ويمضى فوست فى تجربة أخرى غير تجربة العشق والغواية ، فيرتفع فى عينى الملك وينال ما يرضيه من السلطان بالحظوة لديه ، ويطعمه الشيطان فى المزيد من الجاه والملك فيعاوده الحنين إلى العشق وغواياته ، ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفاتنة (هيلينا) من الأموات فيبعثها ويأتى بها إليه ، ولكنها تراوغه إذ يضمها إلى ذراعيه ، فلا يجد منها غير جلبابها فى يديه !

وكان فوست بعد مصرع مرجريت قد آل على نفسه ليذوقن كل ألم يبتلى به بنو آدم لينسى جنايته على الفتاة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك أن ينسيه الندم لولا سآمة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التى تلهيه . ويسأل : أين هى السعادة فيعلم أنه لم يجدها قط فى لهوه الأول ولا فى لهوه الأخير ، ثم يلوح له أن يستخدم علمه فى تعمير الخراب وإصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك إذ تحين ساعته وتخرف روحه فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها إلى الجحيم ، وتتنزل الملائكة من السماء فتنازعه عليها وتقول له إنه قد خسر الرهان . لأن فوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينيه إلى النور ومات وهو متجه إليه .

* * *

وأغرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذى ابتدعه خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذى ابتدعه . فانه شاعر فى العصر الحديث

يدين جدا وصدقا بالمذهب الثنوى ومذهب المعرفيين Gnostics الذى ذهب معتقدوه بذهاب القرون الوسطى .

كان بليك من أتباع المتنبىء السويدى سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعتريهم من حالات الوجد والنشـوة الدينية ، ووقر فى خلده بعد أن جاوز الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحى من عالم الغيب ، فاعتزل وظائف الدولة وأعلن خروجه على المذاهب المتبعة وبشر برسالته التى سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيراً يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكبرى ، ثم هجر وطنه وأقام بالعاصمة الإنجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢) .

ودرج بليك فى حجر أسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ولكنه انقلب عليه ولم يرجع إلى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل وراح يستقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره وإلهامه ، ولم يكن على علم بشىء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لأنه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه .

وشـيطانه يصح أن يكون فكرة مجردة كما يصح أن يكون روحاً إنسانياً أو ملكاً من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصح أن يكون عنوانا يضعه الشاعر على كل « شخصية » مفروضة تنتمى إلى الشر والخباثة ، وعنده أن الشر كل الشر هو الصرامة فى الأوامر والنواهى والتشـدد فى المحللات والمحرمات . فكل رب جاء عنه فى الأساطير الغابرة والديانات الأولى وصف العبوس والجهامة واتسم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى فى الشـيطانية على حسب قسوته وصرامته إلى منازل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التى لا يدرى أحد أهى أوهام شعر أو أوهام اعتقاد ثابت — أن روح الشاعر ملتون حلت فيه لتكفر عن خطيئتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير إبليس ، وأن الكتب القديمة أدخلت فى أذهان الناس أن الإنسان ذو حقيقتين جسدية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وأن الله يعذب

الإنسان عذاب الأبد لمطاوعته بواعث جسده ، ومكنه من الحق الذى يناقض هذا أن جسد الإنسان غير منعزل عن روحه لأن حواس الجسد هى منافذ الروح إلى المعرفة ، وأن النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل إلا الحدود التى تحيط بذلك النشاط ، وأن النشاط هو الفرح الأبدى وما عداه كسل وإحجام عن الحياة .

ولم ينشر بليك مؤلفاته لأنه كان يمقت الطباعة ويناظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى أنها أليق بالوحى الروحانى من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتوراً فى نهايته أو مبتوراً فى أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود أن يدونها بعنوان خطرة مذكورة ، وفى الخطرة التالية عن الشيطان والملك يقول :

« رأيت يوما شيطاناً فى لهيب النار يرفع هامته إلى ملك جالس على سحابة ، ويصيح به : اسمع يا هذا . ان عبادة الله هى تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون عليه إلا أعداء لله . فلا إله غير ذاك » .

« وسمع الملك مقاله فازرق ثم ملك جأشه فاصفر ثم سكن فابيض وعلته حمرة وابتسامة ، وقال : يا عابد الصنم ! أليس الله بالإله الأحد ؟ أليس الله قد تجلى فى عيسى المسيح ؟ أليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ أليس سائر الناس حمقى وخطاة وعدماً ونكرات ؟ » .

ثم يأتى بليك على لسان الشيطان ردا يقول فيه : « إذا كان المسيح أعظم إنسان فأحببه حبك للإنسان الأعظم » .. ثم يحكى له الشواهد من أعمال المسيح ناقضاً ما يفهمه الأكثرون من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلا : « لقد كان عيسى فضيلة كله ، لأنه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود » .

وكل ما ألقاه بليك على ألسنة الشياطين فهو من قبيل ما تقدم ، مع

التناقض الذى لا يثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالأوامر الصارمة والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة أنها تحسب أنها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق أن يغتر هذا الغرور ، وأكثر النتف التى تركها تحمـــل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان المقرن بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشيطان فى رأيه بالعمـــل الذى يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثاً بوحى الفطرة الصادقة .

فالشـــيطان على هذا الاعتبار جيوش من الشياطين يجسمها القارىء أو ينظر إليها كأنها معانى الشاعر فى قريحته مطلقة بغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة فى الحس أو الخيال .

* * *

وبعد شيطان بليك — أو شـــياطينه — لا تحفظ تواريخ الأدب الغربى صورة لشـــيطان شعرى عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كردوتشى شاعر الثورة الإيطالية (١٨٧٠ — ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بســـنة .

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشى أن تكون نشيد صلاة . . . وقد سماها هو نشيداً ونظمها على وزن التراتيل التى تنشد فى الصلوات ، وقال فيها أنه لا يحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيى إبليس لأنه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لا تهرب منى حين أناجيك . فانى أود أن أنطلق إليك بروحى ولا يكفينى أن ألتقى بك فى الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الأخيرة قائلا :

« إنك أيها الشيطان لعظيم . . إنك تعبر البحار وتطوى الأرضين . . إنك تنفث الدخان كالبركان . . وتجوس خلال الديار ، وتمضى حيث تشاء كما تشاء » .

وانطلاق الشـــيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند

كردوتشي الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشـــاعر كما قال ابن وطنه جيوفانى بابينى — متأثراً بأستاذه ليو باردى فى قصيدته عن إله الشر أهريمان صاحب القضاء النافذ فى الوجود كله ، منفرداً — فى رأى ليو باردى — بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته فى الزمن القديم أو الزمن الحديث .

* * *

ونحن فى هذه العجالة بجزئنا ما تقدم فى باب شـــياطين الشعراء التى عمـــل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفســـية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل ما يقال عن إبليس أو عن الشـــياطين كما يعتقدها أتبـــاع المذاهب منذ القرون الوسطى ، فقد كان أكثر الشـــعراء يجربون قرائحهم فى مأســـاة آدم والشـــيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العلم الزاخر إذا عرفنا أن رجلا مثل هوجو جروتيوس (١٥٨٣ — ١٦٤٥) الملقب بأبى القانون الدولى قد جرب قلمه وقريحته فى هذه المأساة ، وكان معاصراً للشـــاعر ملتون فانتشرت قصائده إلى جانب القصائد الخالدة التى نظمها ذلك الشاعر المعدود اليوم فى الذروة بين أشعر شعراء العصور .

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هوجو إلى سميه الفرنسى الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) أن يجرب قلمه وقريحته على نمطه ، فنظم قصائد فى خاتمـة الشـــيطان ونادى بموته ولحاقه بإبليس جاحد ربه بين عقول كالخفاش الذى يخاف النور أو البومة التى تستهدى الظلام والغراب الذى يسلم الفضاء للنسر والعقاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التى لا تبلغ الهدف إلا من قناع الموت ! ودون ذلك كله وتنحسر أشواط الأبالسة والشياطين .

إلا أن هذا المحصول الزاخر لا يزيدنا لوناً من ألوان الصورة فى ضمير المؤمن أو فى قريحة الشاعر ، وهذا الذى تحريناه فى إهمال ما أهملناه والإلمام بما أشرنا إليه . بيد أننا لا نستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسى بودلير صاحب ديوان أزهار الشر وناظم القصائد فى الابتهال إلى الشيطان « أحكم الملائكة الذى سرق منه القضاء ثناءه والذى سجل عليه

الطرد والحرمان من لا يزال يخطىء ويغلط » . . فان هذا الشيطان عارض نفسانى يصور الانعكاس فى السريرة المشوهة فتتعمد التوجه إليه على سبيل النقمة والنكاية وتصلى إليه ليشفق عليها كأنها تستجدى الشفقة الإلهية — عكسا — بلسان اليأس والكبرياء .

وفيما عدا شيطان بودلير لا نرى فى هذا الفصل موضعاً للشياطين التى تخيلها الشعراء ولم تدخل فى عداد الصور الخلقية وخوالج الوجدان فى الإنسان منفرداً أو جزءاً من أجزاء الجماعة . فالشاعر الروسى لرمنتوف خلق فى إحدى قصصه شيطانا لا يعدو أن يكون إنساناً متنكراً يزاحم الناس على العشق والشهوة ، والشاعر الإنجليزى بيرون خلق شيطاناً فى قصيدته « رحلة الشيطان » لا يعدو أن يكون مخبر صحيفة يروى للقراء ما يروى فى المجالس النيابية ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجرى على لسانه كلاماً يجريه بعض الشعراء الآخرين على ألسنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد ، وكل أولئك لا يأتى فيه شىء عن جبلة الشيطان غير حروف اسمه التى تغنى عنها حروف اسم من أسماء الحيوان أو الجماد .

أما الشيطان الذى نعرض هنا لذكره فهو الشـــيطان الذى يحوم فى النفس الإنسانية وبين الجماعات البشرية فى تقاليدها وموروثاتها ومقاييسها لخيراتها وشرورها ، وهو الشـــيطان الذى يطيف به خيـــال الشاعر معبراً عن شعوره ، وإن لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التى سميت بأسمائها فى الأدب العربى : هبيد ومسحل والهوجل وجهنام ، أو كالشياطين التى يعتقدها المتدين ويفتن الشاعر فى تصويرها لامتيازه بملكة الخيال وملكة الرمز والتشخيص . . فهذه الشياطين قوى مشتركة فى طبائع الناس وقيم نفسية يقومها الناظرون فى الأخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها لبقى مكانها متطلباً منا أن نسميها بغير تلك الأسماء ، لأنها لا تقبل السكوت عنها ولا تغفلها الحياة إن أغفلها اللسان (١) .

---

(١) أهملنا فى هذا الفصل ما كتب على سبيل الهزل فى قصص الفكاهة كقصة رابيليه الفرنسى وبن جونسون الانجليزى ، فانهما صورا الشيطان غرا مخدوعا ليبالغا فى دهاء الفلاحين أو المرابين ، ولم يقصدا الجد فى تصوير شيطان معلوم أو تصوير الخلائق الشيطانية على العموم .

في الأدب العربي

يندر فى الأدب العربى تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشياطين التى حفلت بها ملاحم الشعراء الغربيين وقصائدهم ، لأن شعراء العرب لم ينظموا الملاحم التى يتمثل فيها أبطالها بملامحهم الظاهرة وملامحهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذى أصابه فى أدب الغرب شعراً ونثراً . لأن الأدب العربى لا ينسب إلى الشيطان دوراً فى قصة الخليقة والخلاص كالدور الذى ينسب إليه فى عقائد الأدباء الغربيين ، فإذا نظم الشاعر العربى ملحمة عن الخليقة لم يكد يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذى يطرأ على كل سريرة آدمية فى ساعته كما طرأ على سريرة آدم أو سريرة حواء .

وإذا تخيل المتخيل صفة للشيطان فى كلام شاعر عربى فلا نظنه يخرج منه بصفة غير تلك الصفة التى لخصها أبو نواس فى خليط من الخبث والحماقة . لأنه

تاه على آدم فى سجدة
وصار قوادا لذريته

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لأنفسهم ذلك الحوار الذى دار بينه وبين أبى نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد إبليس أن يتوب عن المعاصى إن لم ييسر له ما يشتهيه ، وقد كان إبليس على هذه الصفة عند الشاعر الذى قال فيه :

النار عنصره وآدم طينة　　والطين لا يسمو سمو النار
إبليس أكرم من أبيكم آدم　　فتبينوا يا معشر الأشرار

وذلك هو بشار بن برد الذى كان يتظرف بأمثال هذه البدوات ولا يأتى فيها بجديد من عنده ، لأن المفاضلة بين العنصرين أقدم من بشار

وأقدم من كل ما قاله الشعراء المسلمون عن إبليس ، ولم تخطر صفة إبليس على بال أحد من المتقدمين في الإسلام إلا كان يعلم أن إبليس من عنصر النار .

على أن موضع إبليس من رسالة الغفران لأبي العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء الغربيين . فقد ذهب فيها إلى أودية ليست كأودية الجنة فسأل صاحبه بعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في الأحقاف وفي سورة الجن وهم عدد كثير . . ويسأل أحد العفاريت عن أشعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بجدة الأمر . وهل يعرف الإنس من النظم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى بالخيثور وأنهم من غير ولد إبليس ، وأنهم من الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم عليه السلام .

ويلتقي في جنة العفاريت شاعراً يسمى أبا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيها عن أيام طاعته لإبليس :

نحارب الله جنودا لإبلـ	ـيس أخي الرأى الغبين النجيس
نسلم الحكم إليه إذا	قاس فنرضى بالضلال المقيس
نزين للشارخ والشيخ أن	يفرغ كيسا في الخنا بعد كيس
ونقترى بجن سليمان كى	نطلق منها كل غاو حبيس
ونخرج الحسناء مطرودة	من بيتها عن سوء ظن حديس
ونخدع القسيس في فصحه	من بعد ما مني بالأنقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها	في يدها كشح مهاة نهيس
نادمت قابيل وشيثا وها	بيل على العاتقة الخندريس

وفي أقصى الجنة يلقون الحطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : أحببت أن أنظر إلى صخر فأطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه فقال لي : لقد صح مزعمك في

وإن صخراً لتأتم الهداة به	كأنه علم في رأسه نار

قال أبو العلاء عن صاحبه : « فيطلع فيرى إبليس لعنه الله وهو مضطرب فى الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتى الأدب أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ، إنها تهب غفة — أى بلغة من العيش لا يتسع بها العيال ، وأنها لمزلة بالقدم . وكم أهلكت مثلك ! فهنيئاً لك إذ نجوت فأولى لك ثم أولى . ان لى إليك حاجة فإن قضيتها شكرتها لك يد المنون . فيقول : أنى لا أقدر لك على نفع ، فإن الآية سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى : **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا إن الله حرمهما على الكافرين .**

فيقول إبليس : إنى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنيه . أن الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات ؟ فيقول : عليك البهلة . أما شغلك ما أنت فيه ؟ أما سمعت قوله تعالى : « **ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** » . . فيقول : وإن فى الجنة لا شربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندى يداً ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلنى دون الشعراء وهو القائل :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

فلا يسكت من كلامه إلا ورجل من أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر إلى ما نزل به من النكال . .

* * *

وكل ما جد بعد المعرى من كلام يدخل فى باب القصة من الأدب ويذكر فيه الشيطان — فهو تلك القصص التى جمعت باسم ألف ليلة

وليلة واقتبس رواتها ما تداولته الألسنة من أخبار السحرة وتسخير المردة وقيام الجان على ارصاد الطلاسم أو حبسها فى الأغوار والقماقم ، وهى لا تأتى بابتداع أو اختلاف أو زيادة على ما اعتقده الناس ونظمه الشعراء .

* * *

ولم يطرأ على الأدب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرن العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع على آداب الأمم والبحث فى موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الأمم ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الأحياء .

ونحن فى هذا الباب خاصة لا نبحث بحث المؤرخين أو النقاد الأوربيين ، وإنما ما أحسسناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف فى هذه الأغراض مما عالجناه وانبعثنا إليه بوحى الإطلاع وعدوى الخواطر التى يوحيها .

* * *

أول ما خطر لنا أن نقارن بين التشبيهات والمعانى المجسمة فى اللغات الأوربية واللغة العربية ، وكتبنا فى هذه المقارنة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المخلوقات وعن الأساطير ، مما يطلع عليه القارىء فى كتاب « الفصول » ومجمع الأحياء ، وأحسسنا الحاجة إلى تصوير بعض العواطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا فى وقت واحد فى نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتأليف كتاب نسميه « مذكرات إبليس » ونخصص كل فصل منه لغواية من الغوايات كالعشق الأثيم والسرقة والبغى والطمع وسائر هذه الآثام التى تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك حوالى سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب وأساطيره . فأما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التى نظمناها فى موضوعه ، وأما مذكرات إبليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الأعور بن إبليس الموكل بالعشق الأثيم ، ثم بقيت النية مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا :

عنه بعد الحرب العالمية الأولى إلى موضوع القصيدة التى سميناها ترجمة شـيطان ونشرت فى الجزء الثالث من الديوان .

وحوالى هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقرى الأستاذ عبد الرحمن شكرى كتابه النثرى الذى سماه « حديث إبليس » وقال فى مقدمته : « قد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لا نعرف إن كان وراءها سيل أتى . وهذا الكتاب فيه شىء كثير من البحث النفسى والتسـاؤل والشك والسـحر الذى هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فى كل نفس ، فى فصل نصيحة إبليس مثلا ترى تحت السحر المودع فى هذا الباب ما أرمى إليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التى تشبه مياول الطرق ، وقد جعلت إبليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه » .

وقد أطلعنا بعد الحرب العالمية الأولى على محاولات منوعة فى هذه الأغراض لم يكن منها ما بلغ فى جودته مبلغ العمل الفنى خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها ما نظم فى مصر وما نظم فى غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقر » للشـاعر السورى الأسـتاذ شفيق معلوف من صفوة أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره فى الطبعة الأولى سـنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه فى سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة الشهيد لزميلنا الكاتب الموهوب الأستاذ توفيق الحكيم ، وهى قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ما كتب فى هذا الغرض فى جميع اللغات .

* * *

أما قصيدة سباق الشياطين فخلاصتها أن إبليس جعل لتلاميذه جائزة ينالها من يعرض أعماله ويثبت للمـلأ من الشـياطين قدرته على السبق فى التضليل والإغواء . فانبرى سبعة من الشـياطين يتنافسون عليها وهم : شيطان الكبرياء ، وشيطان الحسد ، وشيطان اليأس ، وشيطان الندم ، وشيطان الحب ، وشيطان الكسل ، وشيطان الرياء ، فاستحقها هذا الشيطان

الأخير — شيطان الرياء — ولكنه جرى على عادته فأظهر الزهد فيها وتنحى. عن تناولها بعد اشتراكه فى المنافسة عليها فخاطبه إبليس :

قال تأباها ولولاك انجلى غيهب الأرض فكانت كالنعيم
دونك الدنيا اتخذها منزلا وتولى اليوم أبواب الجحيم

* * *

وقصيدة ترجمة شيطان هى قصة شيطان ناشىء سئم حياة الشياطين وتاب عن صناعة الإغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحور العين والملائكة المقربين . غير أنه ما عتم أن سئم عيشة النعيم ومل العبادة والتسبيح وتطلع إلى مقام الإلهية لأنه لا يستطيع أن يرى الكمال الإلهى ولا يطلبه ثم لا يستطيع أن يطلبهويصبر على الحرمان منه ، فجهر بالعصيان فى الجنة ومسخه الله حجرا فهو ما يبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وآيات الفنون ، واستضحك إبليس بين جنده يوم انتهى المطاف بتلميذه إلى هذه الخاتمة فقال :

ما أرى هذا الفتى من دمنا
ومتى استغوى الشياطين الشرك
أترى شيطانة من قومنا
أغوت الأملاك فهو ابن ملك

.. .. ..

فتلاحى القوم ثم استضحكوا
ودعا مازحهم شر دعاء
قال : فلتسلكه فيمن سلكوا
أيها المولى سبيل الشهداء

* * *

والسمة التى يتسم بها إبليس فى رسالة الأستاذ عبد الرحمن شكرى. هى سمة النقد الساخر تسرى فى الحديث من أوله إلى ختامه ، ويدل بعضها

عليها كقول إبليس عن أخلاق الإنسان والحيوان : « إننى أرى فى الحيوانات العجم خصالا هى فى الإنسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والأمانة ما ليس للإنسان ، وللخيل من الود والولاء ما لا يبلغ بعضه الإنسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له ، ولو فطنتم يا بنى آدم لرأيتم أن تزوجوا بناتكم من البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب نسلهن بالوراثة من حميد صفات هذه الحيوانات . . ولا تحسب أن النساء ينزعجن من هذا الزواج فانهن قد ألهمن فضائل الحيوانات وهذا تفسير ميلهن إلى صغار الكلاب والقرود ؟ . » .

أو كقول أحد الشـــياطين : « . . فالتفت إبليس إلى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس : مالى أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك عافاك الله من الناس ، فانى أستخدم ريش جناحى كما تعلم فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحى وأتلفته وأنا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحى ريشة أخرى حتى نفد ريشى ولم تنفد ذنوب الناس » .

وختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الإنسان ، ونصيحة من روح الأبد يقول فيها للإنسان الذى يخاطبه : « اذهب إلى مكانك من الأرض ولا تنس عظم الوجود فإن إحساسك بعظمته فيه معانى العباد كلها » .

* * *

ونظم شاعر المهجر البرازيلى الأستاذ معلوف ديوان عبقر مقسما إلى قصائد يروى فى كل قصيدة منها نبأ عن ولد من أولاد إبليس أو بعض الشـــياطين ، فيقول مثلا عن الشـــيطان « داسم » إبليس النقائص :

وجاءنا ثانى ، أبناء عزريل

سحنة شـــيطان ، فى منكبى غول

وقال فى دهاء ، ويلك أنا الكاسى
بالخبث والرياء ، نقائص الناس

* * *

لمـــا أممت الأرض فى زورة
أستعرض النقائص العارية
ألفيتها والناس قد مزقوا
أجسادها فى فتنة دامية
فرحت أكسو بيدى عريها
بحلل براقة زاهية

* * *

فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الآباء ، غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، فى عرفهم عزما
ويقول عن الأعور إبليس الشهوة
وذاك أعور ، أطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال انى أنا ، حامى ذمار الخنا ، والعهر والشهوة
شرارتى فى العيون ، حريقة فى الدم
أنا مثير الجنون ، والفم لصق الفم
ما اتكأ العاشقون إلا على معصمى
كم ذاق خمرى عاشق فالتوى
معربدا فى سكرات الهوى
مهـــدما ببعضـــه بعضـــه
وهو على الأنقاض يبنى السوى

وختم الديوان بقصيدة عن العبقريين قال فيها عن أهل الخلود من أبناء عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم أجد لذهولى سوى
جماجم أرواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى
فصاحب العظام ، أعطى الذى أخذ
لم تظفر الأيام ، منا بغير الفلذ
فكن عش الغرام ، وصرن مأوى الجرذ
لكنها أحلامنا لم تزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خلف كؤوس الأمل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسعدها خيال موفق فى كثير من تشخيصاته وما ينطق به لسان الحال من تلك الشخوص المخيلة .

* * *

وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان فى الأدب العربى الحديث تتم من جانبها الفنى بقصة « الشهيد » للأستاذ توفيق الحكيم ، لأنه أعطى الشيطان دوره المحتوم فى مسرح الكون ، وجعله كما هو فى الواقع دورا لا حيلة فيه له ولا لأصحاب الأديان الذين يلعنونه ويستنكرونه . ولكنه يلجأ إليهم ليتوب على أيديهم فلا يدرون كيف يقبلون توبته ، فان الحبر المسيحى لا يملك أن يتصرف فى عقيدة الخطيئة والخلاص ، والربانى اليهودى لا يملك أن يتصرف فى مكان شعب الله المختار بين الأمم التى أضلها الشيطان على اعتقاده ، والأمام المسلم لا يملك أن يتصرف فى التعوذ من الشيطان الرجيم ، ويصيح إبليس يائسا : « وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته . . . نفسى المعتمة يجب أن تظل هكذا لتعكس نور الله » . . ويبكى إبليس فتتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فينهاه جبريل عن البكاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط إلى الأرض مستسلماً

« ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء . . . رددت صداها النجوم والأجرام فى عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : أنا الشهيد . أنا الشهيد .

* * *

ومن الحق أن نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان فى الشعر العربى ، لم نثبته مع الصور السابقة لأنه من ألوان الرأى لا من ألوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الإهمال فى هذا المطلب لأنه رأى يبديه صاحبه فى حقيقة الشيطان .

ذلك هو رأى الأديب العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى ، ومجمله أن الشيطان هو الإنسان الذى يخدع غيره لغاية من غاياته .

لا يخدع المرء إنسانا لغايته
إلا إذا كان ذاك المرء شيطانا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم فى ذكرها وأخطأ المفسرون كما قال فى حساب المليكين :

غير أنى أرتاب من كل ما قد
عجز العقل عنه والتفكير
لم يكن فى الكتاب من خطأ كلا
ولكن قد أخطأ التفسير

* * *

فهذا المطلب على حداثته فى الأدب العربى قد أحيط من جوانب متعددة . وهو — ولا شك — لا يساوى نظائره الأوربية فى استفاضتها ولكنه يساويها فى طبقتها إذا أسقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليقة وما كان لهذه القصة من القداسة الدينية التى لم يخلقها ابتكار الشعراء والأدباء .

فى العصر الحاضر

إذا أخذنا باحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار إنتشار الأفكار والعقائد — جاز لنا أن تقول أن الحضارة العصرية أكثر الحضارات إيمانا بوجود الشيطان وعمله الدائم فى النفس البشرية والبيئات الاجتماعية . فإن كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات فى كتابة الأوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقى ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول فى العصر الحاضر .

ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الإحصاء الآلية : طريقة الحكم على الأفكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فان كلمة الشيطان كانت علماً على « شخصية » الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغوياً لا تؤديه كلمة أخرى فى مدلوله . لأنه يؤلف فى كلمة واحدة بين الأعمال الشيطانية بجملتها ، ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الأذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذى انتقل من ألفاظ الأعلام إلى ألفاظ المعانى والصفات .

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة « مأمون » حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد كانت الكلمة فى اللغة السريانية علما على رب يزعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه إنكم لا تستطيعون أن تخدموا سيدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان فى مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الجشع ومطامع الأشرار .

وبهذا المعنى المجازى تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الأوربية الحاضرة ، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون فى عمله

وفى مدى قدرته ، وكلهم فى العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التى كانت تسبق إلى خيال السامع فى القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل .

وقد ظهر فى باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التى يقابل بها وصايا الله ، فجمعها فى ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطى المرء شيئاً بغير جزاء ، وأن يتناول طعامه منفرداً ولا يدعو أحدا إليه ، وأن يقتر على أهله وأن يحتفظ بالفتات من مائدته ، والأسمال من كسائه وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة . . . وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجد والسخرية ، وأنها اليوم لفضائل العصر الذى يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والأنانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان فى حضارة العصر لا يقصدون جميعاً هذا المعنى المجازى ولا يقصرونه جميعاً على الصفات دون الأعلام والأسماء . فإن أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم — كما أسلفنا — يسمعون باسمه فلا يتخيلونه على الصورة التى كانت تسبق إلى خيال السامع قبل بضعة قرون .

فهم يذهبون اليوم بصرعى الجنون إلى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه إلى الشيطان من إيحاء وتلقين . وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التى كانت له فى القرون الوسطى ، فإنها انحسرت شيئاً فشيئاً حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة إلى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول إلى حالة كالحالة التى حصره فيها الإسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان .

* * *

ويؤول الشيطان على هذا فى القرن العشرين إلى مصيرين : مصيره

فى مجال العقيدة الدينية وهو إلى النقصان ، ومصيره فى مجال العبارة المجازية وهو إلى الزيادة ، وعلى الناظر فى العبارات والأساليب أن يطيل النظر فى هذا المصير الأخير . أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان ؟ أليست هذه اللفظة الواحدة : لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها فى التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المفيد » .

من الذين زادوا فى عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاضر تولستوى حكيم الروس الكبير . فقد أضاف إلى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية وشيطان التعصب الدينى وشيطان الاستعمار وشيطان الحرب والاستبداد .

ومن الذين زادوا فى عددهم إلى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف . . . فإن شيطانه الذى أقامه فى الضواحى رجل كان طفلا يتيما تركه أبوه لزوجة سكيرة ، تحبسه فى الدار يهلك جوعاً وعرياً وتذهب لتسكر وتعربد فى الطريق ، فإذا شكا إليها الطفل اليتيم إذ ترجع إلى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصيح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح ، فكبر فى الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله . . . فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق ..

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الإنجليزية المعروفة مارى كاريللى ، والشيطان عندها فى قصة أحزان الشـيـطان يشبه أن يكون صورة الخير منظوراً من قفاه لا من وجهه وسائراً إلى الوراء بدلا من مسيره إلى الأمام ..

* * *

ومن الذين زادوا فى عددهم سليل بيت العلم بين الإنجليز الدوس هكسلى كاتب القصـة والمقال وأديب العلمـاء وعالم الأدباء ، فانه أخذ « اسيدى » شيطان القرون الأولى فنسخ منه ألوف النسخ بين الآدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه فى وضح

النهار . . . إذ كان من بلواه أنه لا يغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم في وهج الظهيرة ومع شمس الصحراء التي يهرب منها الإنس والجان .

كان « اسيدى » هذا شيطان الحلم فى اليقظة الذى سلطه إبليس على رهبان الصعيد فى عصور المسيحية الأولى ، وكان من دأبه أن يلهيهم عن العبادة بما يزخرفه لهم من الأحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون فى ظلال الصوامع بين نيران القيظ فى الصحراء . فاذا حلموا كسلوا وإذا كسلوا شكوا وإذا شكوا آل بهم الشك إلى السآمة والملل وكراهة الدنيا والآخرة واليأس من الصحيح والباطل على السواء .

وينقله الكاتب من القرون الأولى إلى القرن التاسع عشر ثم إلى القرن العشرين ، ويقول فى تفسير نقلته « أننا لا نزعم أن اسيدى من مخترعات القرن التاسع عشر » . فان السآمة والخيبة واليأس وجدت قديماً ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلى بها الآن . . . غير أنها فى العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موقرة مرعية ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم . . . وهذا الذى طرأ عليها إنما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ . . إنما هو إخفاق الثورة الفرنسية وذلك الإخفاق الذى يربى عليه فى الضجيج والأبهة وهو سقوط نابليون . لقد غرس كلاهما « اسيدى » فى قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح إلى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القذر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هذه الصناعة حسب القلب الكريم من محنة الحزن والأسى ، واطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التى طالما كافحوا من أجلها عبث لا يغنى شيئاً مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعباً آخر من ضروب الرعب التى خيبت الآمال فى القرن العشرين ، وزيد عليها من دواعى السآمة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن وراء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا فى البعد عنها تفاهة لا تطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة

حنيناً إلى سآمة الريف . . . وكأنما كانت هذه المضجرات فى انتظار تاج يعلوها فتوجتها الحرب العالمية الأولى . . .

* * *

ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من طبقة هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيراً مجازياً عن مساوىء العصر وشروره وأدناسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك الشيطان كما فعل هكسلى فيما ألممنا به من كتاباته آنفاً وفى كتابه الذى ألفه عن شياطين لودن The Devils of Loudun . . ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلى قد أراد أن يكشف عن خبيئة من السوء فى هذا الإنســـان الذى يلعن الشيطان ثم يهبط إلى ما دونها أخبث الشياطين .

فالقصة التى حققها الكاتب من مراجعها التاريخية إحدى المبكيات المضحكات من مآسى التاريخ التى حفلت بها صفحاته فى القرون الوسطى ، وكان فيها مظلومان مكذوب عليهما كذباً لا يخفى على أحد فى الزمن الحديث ، وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه .

وقد بدأت القصـــة بإصابة بعض الراهبات فى بلدة لودن بالصرع واتهامهن بالتجديف والبذاء والتفوه فى نوبات المرض بكلام يخجلن منه كلما أعيد عليهن بشىء من التلميح وهن مفيقات ، ولو حدثت هذه الإصابة فى العصر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم أنهن مصـــابات « بالهستيريا » أو بالفصام الذى تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذى تولى البحث فى أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن فى خلال النوبة وخجلهن بعد الإفاقة منها إلا أن المتكلم بالبذاء أحد غيرهن يهمه أن يعبث ببراءة الراهبات انتقاماً من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان !

وسنحت الفرصة لاتهام الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الأسقف « جرانديه » عدو الكردينال ريشليه ذى الحول والطول فى بلاط باريس ، فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وصدقت إحداهن

أنها فريسة الشيطان باغراء الأسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى إليها ، وقرر المحققون أنهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك الفريسة ، فتقررت إدانة الأسقف بشهادة الشيطان ! وحكم عليه بالإحراق وهو بقيد الحيـــاة .

ولما قيل لهم أن الشـــيطان أبو الأكاذيب لم يعسر عليهم أن يبطلوا هذه الشبهة باضطرار الشـــيطان إلى الصدق بين يدى أصحاب العزيمة والبرهان من المحققين الصالحين .

وتمشى السخرية مع الفجيعة جنباً إلى جنب فى هذه المهزلة الشيطانية ، فيحدث فى بعض محاضر التحقيق أن يقول الشـــيطان أن السيد لوبردمان رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الأسقف وغيره ، ويكون لوبردمان غائباً عن الجلسة ولا يلتفت إلى قراءته عند توقيعه فيضع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذى يقرر فيه اعتماد الصدق فى كل ما جاء فيه ، ويضحك ولاة الأمر ملء أفواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود إلى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه فى تمليق الكاردينال ويفتتح المحضر المحفوظ بتاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلا : ما قولك فى الكاردينال العظيم حامى الديار الفرنسية ؟ فيجيبه الشـــيطان مقسما باسم الله : أنه سوط عذاب على أصدقائى أجمعين . . ويعود الرئيس سائلا : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول الشيطان : إنهم زمرة الهراطقة . . ويسأله الرئيس : وما هى مآثره الأخرى ؟ فيجيبه الشيطان أنها هى إنقاذه للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك لويس . . .

وبعد العناء المضنى فى جمع هذه الأوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها إلى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة إلى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الأوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآرى المطهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الرومانى العريق ، وما تصنعه الشيوعية

حين تثور على أصحاب الأموال الأوغاد — كل أولئك ثورة لا تتورع عن اتهام الأبرياء وإحراق الأحياء ، والهبوط إلى الهاوية فى أهبة الصعود إلى السماء .

* * *

ومن المفكرين الذين لهم خطر فى كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصرى كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب فى موضوعات الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتى فى العصر الحاضر ، والكاتب الآخر جيوفانى بابينى صاحب كتاب حياة المسيح وأديب المذهب الكاثوليكى المرضى عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين .

ألف الدكتور لويس رسائل الشـيطان وجعلها على لسان أستاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة وإقصاء بنى آدم عن حظيرة الرضوان ، ومعظم هذه الأساليب نفسية يرى العلمـاء النفسانيون مع المؤلف أنها بواعث شر وجهل فى الطبيعة الإنسـانية ، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداخل الشـيطان إلى سريرة الإنسان فيقول الشيطان الأستاذ — مثلا — لتلميذه أنه خليق أن يتنبه إلى خطأ جسيم يقع فيه ناشـئة الشـياطين وهو اعتقادهم أن السرور حبالة الشـيطان . إذ الحقيقة أن الإنسان باق فى الحظيرة الإلهية ما بقى فى نفسه موضع للسرور ، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذى يلحق باللغو والتهريج ، وينبه الأستاذ تلميذه إلى الإقلال من العناية بإغواء المتدينين الذين تساورهم الشكوك من جراء الحروب والنكبات فان المتدين الذى لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد غنى عن الإغواء ولا حاجة بالشـيطان إلى فرط العناية باغوائه ، وعلى الشيطان التلميذ ألا ييأس من أصحاب الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع أنفسهم ومع غيرهم ، فانها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل عمل الرذيلة وهى فى عنفوانها ، وليس من عمل الشيطان أن ينشر الإلحاد لأن الذى ينكر وجود الله

وينكر وجود الشيطان ، وإنما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الأمل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات فى خلائقه ومقاديره ، وأقوى الحبائل فى رأى الأستاذ الشيطان أن ينفصل الإنسان من حاضره ويقبل على المستقبل بجملته فان المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضى متعلق بالأباطيل ودواعى القنوط والكراهية ، وعلى الشيطان الناشيء أن يذكر أن الكراهية هى المهمة فى المذاهب « المستقبلية » دون عناوينها ودعاويها ، فلا فرق بين الشيوعية والفاشية والإباحية على اختلافها ما بقيت نفس الإنسان خلواً من الحب مفعمة بالنقمة والبغضاء ، وآفة الآفات الكبرى على الدوام أن يصبح الكون فى نظر الإنسان صفرا من العجائب وشتيتاً متشابهاً من المألوفات والمتكررات .

ولولا ضيق نظر يســـاور عقل المؤلف أحياناً كلما نظر إلى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره فى هذه الأمور مطابقاً لتفكير المتدين فى كل دين .

والكاتب الكاثوليكى جيوفانى بابينى يؤلف الكتاب عن الشـــيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين فى جملة الأعداء الذين تشملهم رحمة الله ، ويرى أن الله لا يرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلابد فى نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان . . وزوال الشيطان إنما يكون بزوال شره وارتداده عنه إلى الخير والصلاح .

ورأيه هذا مخالف لآراء الأكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخالفة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فإن آراءه الأخرى فى الكتاب تحسب له إذا حسب هذا الرأى عليه ، وفيها شرح للعقائد الدينية وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المعتقدون ويقنعون به من الكاتب فى زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العالميين الذين يعلنون عقائدهم فى غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدين .

* * *

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالديمنولوجى) Demonology أو مباحث

الباحثين عن الشـــيطان فى العقيدة الدينية وفى التعبيرات المجازية فى القرن العشرين .

فالمدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشـــيطانية فعلا ويحصرونها فى أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلة التى كانت لها فى عقائد الأولين إلى ما بعد القرون الوسطى .

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغى الشخصية الشيطانية بتة ويحل محلها عوامل الوعى الباطن التى يسميها الغريزة أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الأسماء . . وهذا الفريق مسبوق إلى رأيه فى جملته دون تفصيله ، فقد ذهبت هذا المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند فى رأيها إلى قول النبى عليه السلام أن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول .

والفريق الآخر على رأى هكسلى الذى تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لا يمنعان وجود الشيطان كما جاء فى الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول : « هل توجد الشـــياطين ؟ وإن كانت توجد فهل كانت حاضرة فى جسد الأخت جين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشيطاني فلست أرى فى القول به سخفاً أصيلا ولا أجد شيئاً من التناقض فى فكرة ترى إمكان وجود الأرواح غير الإنسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبث فيها ، وليس ثمة ما يضطرنا إلى القول بأن الملكة الفاهمة ممتنعة فيما عدا أجسام الإنسان والحيوان ، وإذا قبلنا الشواهد على الكشف والنظر البعيد — وهي شواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا — فلابد من الإيمان بعوامل مفكرة مستقلة على الأغلب الأعم عن المكان والزمان والمادة . . » .

وهذه هى زبدة « الدمنولوجى » فى صفحتها الأخيرة من آراء المتدينين والمفكرين فى القرن العشرين .

خاتمة

تمت فى هذه الصفحات رسالة موجزة فى موضوع من موضوعات المقارنة بين الأديان والعقائد يدور حول تصوير « قوة الشر » من عهد القبائل البدائية إلى منتصف القرن العشرين .

والمقارنة بين الأديان والعقائد علم حديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختامه وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الأخيرة فيه تتوالى وينسخ بعضها بعضاً أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب والنتائج المعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره إلى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد .

ونحن نختم هذه الرسالة ، والأجزاء الأخيرة من موسوعة أرنولد توينبى Arnold Toynbee تصدرها المطبعة من المجلد السابع إلى المجلد العاشر ، وفى نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التى كشفت عن التشابه القريب بين عقائد القبائل البدائية فى القارات الخمس وانقسام المفسرين لهذه الظاهرة إلى فريقين : فريق يرى أن الإنسان تلقى إلهاما بالوحدانية قبل التاريخ وقبل افتراق الأجناس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الإنسانية تتقارب فى وحى البديهة وتستلهم شعوراً واحداً بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضى زمن طويل قبل أن تتحد بين الفريقين ، لأن الأرض واسـعة والقبائل البدائية مبعثرة ، على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التى تخفيها ، وما تجلوه منها اضطرارا أو اختياراً يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز .

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الأديان أنه شىء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الأقوال بين علماء

المقارنة وقرائها على ابتدائها فى خطواتها الأولى وانتهائها فيما انتهت إليه إلى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار .

ولا نخال أن السريرة الإنسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك فى خطواته الأولى أو على أبواب النتائج التى لا تفتح إلا بين التردد والانتظار .

لكن الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الإنسانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظير الفلكيين .

فها هنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلىء به سيرة النوع الإنسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ .

ما هى فى أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظير الفلكيين ؟

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة !

و حديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بادعياء العلم جميعاً أن يبدأوا بالنوع الإنسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية .

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الإنسانى قبل مائة قرن ، وليأخذوا فى تعليمه الأبجدية من هذه الدروس .

ولنفرض أولا فرضاً مستحيلا وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقاً وما يسمونه دراسة منطقية أو علمية .

وليبدأ النوع الإنسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الأخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها .

وليحفظ فلسفات الأكاديمية كلها ويتخرج عليها .

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء .

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة إلى القرن العشرين فماذا نقول ؟

نقول إن هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لا يعدو الألفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين .

لكن النوع الإنسانى ترك هذه الأكاديمية قبل مائة قرن وأمعن فى طريقه الذى هداه إليه القدر وأعدته له الفطرة .

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لكل خلق من أخلاق. الخير والشر والقداسة واللعنة ، وأن أعلم العلماء اليوم لا يستطيع أن يقيم من الفوارق الحية والمحسوسة بين خلق وخلق فارقاً واحداً كالفارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الإلهية والخلائق الملكية والخلائق الشيطانية أو عما يجملها من الخلائق السماوية والخلائق الأرضية والخلائق الجهنمية . . .

إن العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبــــا بالألفاظ أو تطرفاً بالتمثيل والتشبيه . ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعيرونه من المدرسة النفعية والمدرسة السلوكية والمدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامن الهيئات والبيئات ، وما إليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها شيئاً وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون . . وغاية ما تبلغه أنها تأتى إلى محصول القرون بعد زرعه ونمائه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلافته وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها !

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقاس بمقياس الأرقام وأنابيق المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذى سيخطىء لا محالة ، كما يخطىء كل واضع لأمر من الأمور فى غير موضعه ، وكل من يقيس. شيئاً وهو يجهل كيف يقاس .

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن نضطر إلى التوسع في هذا الموضوع الشاسع العسير ، موضوع المقارنة بين الأديان .

فالغريزة فى كل رجل وامرأة وفى كل ذكر وأنثى من الحيوان تسفه كل من يعتسف طرق البحث ويسبر أغوار الطباع بغير مسبارها .

وهذا حنان الآباء والأمهات لغو وباطل بكل شهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لأن حنان الآباء والأمهات يقول لهم أن طفلهم دون غيره يساوى كل من عداه من أطفال الأحياء ويفوقهم فى حق البقاء ويجب أن يزولوا جميعاً إذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها .

وليضرب صاحب القياس الحسابى على هذا الحنان بالخط الأحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأى فى رأسه ، بين الحنان فى صدر كل والد ووالدة ، من الإنسان والحيوان .

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

أحق ذلك الدين أو باطل ؟

إنما الخطأ أو الباطل هو الذى نسقطه ونلغيه ، فها هنا خطأ واحد وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل فى مقياس صاحب الحساب وصاحب الأنبيق .

* * *

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضحة المفتوحة للسمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقاً يرى الأشياء كما تكون فى جو الأثير على بعد من الأرض والجاذبية الأرضية ، ونتحدث أمامه عن اللون الأحمر واللون الأخضر وعن العناصر الثقيلة والعناصر الخفيفة وعن المقاطع والكلمات والأصداء والنغمات ، فماذا عليه لو صاح بنا : على رسلكم يا هؤلاء اللاغطين . . إن ما تهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام .

إنه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وأدعيائه ، وأننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التى يحيط بها العيان وتسمعها الآذان فإذا كانت

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٣٠١ / ١٩٨٥

مطبعة نهضة مصر

الفجالة ــ القاهرة